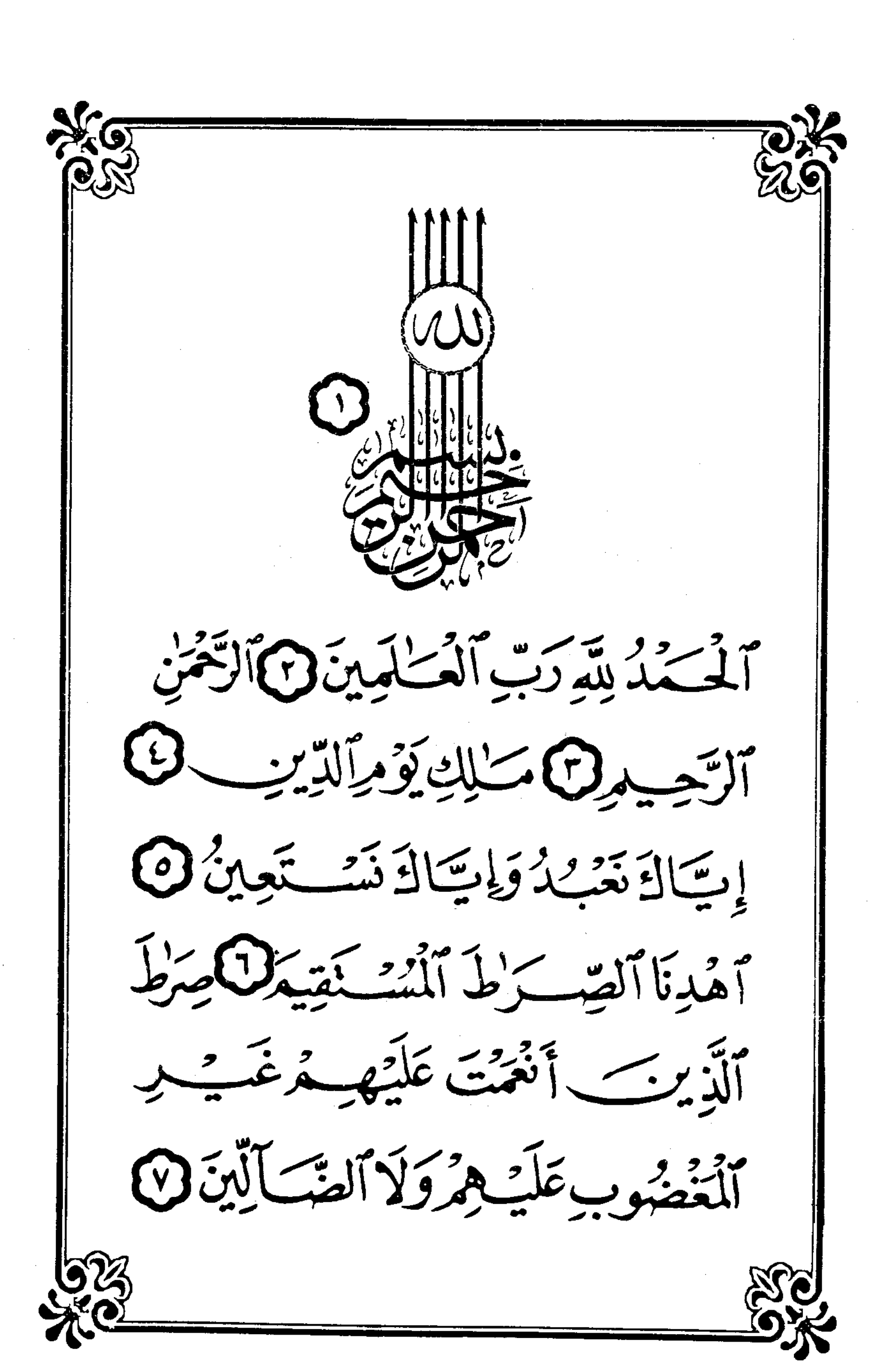
الرسول ﷺ واليهود
وجهاً لوجه
(٧)

القضاء على اليهود
عسكرياً

تأليف
الدكتور سعد المرصفي

مكتبة المنار الإسلامية



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢ ٱلرَّحْمَٰنِ
ٱلرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٥
ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ
ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

القضاء على اليهود

عسكرياً

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٢ م






كويت ـ حولي ـ شارع المثنى ـ تلفون: ٢٦١٥٠٤٥ ـ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤ ـ ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي ـ الرمز البريدي 32045
Kuwait - Hawalli Al-Mothana Street, Tel.: 2615045, Fax: 2636854, P.O Box: 43099 Hawalli, Postal Code No. 32045

مقدمة

كان يهود خيبر أقوى العناصر اليهودية المحاربة فى شبه جزيرة العرب .. ومع ذلك ظلوا على الحياد حيال ماحدث ليهود بنى قينقاع ! ثم بنى النضير!، وأخيرا بنى قريظة !، إلى أن نزل عليهم شيطان بنى النضير ـ حيي بن أخطب ـ منفيا هو وقومه من المدينة، حيث تحولت من منطقة حيادية إلى أخطر وكر تحاك فيه الدسائس، وترسم خطط التآمر على الرسالة والرسول ﷺ، تحت إشراف هؤلاء اليهود المنفيين !، ومن ثم أصبح وكر يهود خيبر يجمع كل الإمكانات الحربية والمالية فى خدمة أغراض العدوان على الرسالة والرسول !

وقد تحصّن هؤلاء اليهود داخل حصون كثيرة .. وفى الوقت نفسه كانوا على درجة كبيرة من كثرة العدد، ووفرة العتاد والعدة، بالإضافة إلى مناعة القلاع والحصون المشحونة بالمقاتلين الذين يفوقون المسلمين أضعافا مضاعفة، وكانت هناك رداءة الجو فى خيبر، بسبب كثرة المستنقعات التى جعلتها مستوطنا للحمى التى أثرت على قوى المسلمين !

ومن ثم كانت أطول معركة خاضها المسلمون مع اليهود فى حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. وفى الوقت ذاته كانت أخطر معركة، حيث لم يكن هناك من وجهة النظر العسكرية المجردة أى عامل مادى يتفوق به المسلمون على اليهود، فضلا عن أن الجيش الإسلامى هو المهاجم ، واليهودى هو المدافع، ومهمة المهاجم أشق من مهمة المدافع !

ومع كل هذا كانت المفاجأة التى أبطلت كل المقاييس العسكرية التقليدية، وأثبتت عمليا أن القوة الحربية مهما عظم شأنها ليست وحدها كافية لإحراز النصر، كما أثبتت أن انتصار المسلمين فى هذه المعركة يبصرنا بحقيقة وأهمية دور رسوخ العقيدة الصادقة فى نفس الجندى المقاتل ، وأن السير فى دروب الكفاح على هدى نور هذه العقيدة طريق النصر .

وهنا نبصر تجربة الاعتزاز بقوة الإيمان التي هى فى الحقيقة أكبر من قوة الواقع المادي المنظور .. وتلك لايصمد لها إلامن اكتمل إيمانهم، فاتصلت بالله قلوبهم، وأصبحت لهم موازين خاصة يستمدونها من واقع إيمانهم.. ومن ثم ترتقى الأمة الدرج الشاق، وماعليها،

مادامت قد بذلت كل الاستعدادات الممكنة ،فمهما يلاقوا من شدة، ومهما يواجهوا من ابتلاء، فهم أمام إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ..

ومن هنا كان صلاح القلوب وثباتها على الحق طريقا إلى النصر .. ومن ثم كان القضاء على اليهود عسكريا..

وقدا اقتضت منهجية البحث أن يشتمل على الفصول التالية:

الفصـل الأول : اليهود فى خيبر .

الفصـل الثانى : فى الطريق إلى خيبر .

الفصل الثالث : الهزيمة العسكرية .

والله أسأل: التوفيق والسداد ؛

والعون والرشاد .؛

إنه سميع مجيب ؛

الكويت فى : غزة المحرم ١٤١٣ هـ
١ يوليـو ١٩٩٢م

سعد محمد محمد (المرصفى)

الفصل الأول

اليهود في خيبر

تمهيد ـ متى جاء اليهود إلى خيبر ؟ ـ اليهود عنصر دخيل فى الجزيرة ـ قوة يهود خيبر ـ وكر للتآمر على المسلمين ـ وعد الله المسلمين بفتح خيبر ـ علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات ـ مقدمات المعاهدة ـ بناء إنسانى ينخر فيه سوس الفناء ـ طريق الدعوة ـ اليهود والمنافقون ـ الرسول ﷺ يمد يد المسالمة ـ أثر هذه السياسة ـ بشرى من الله ـ عدم قبول تجنيد المخلفين ـ حصون خيبر ـ المنافقون طابور خامس ـ استعداد اليهود للمواجهة.

تمهـــيد :

تقع خيبر فى الشمال الشرقي للمدينة، وعلى بعد حوالى سبعين ميلا منها ، [١] وتشتمل على حصون ومزارع ونخل كثير .. وهى واحة واسعة ذات تربة خصبة وعيون ومياه غزيرة ..

متى جاء اليهود إلى خيبر ؟:

وقد اختلف المؤرخون حول تحديد الوقت الذى وُجد فيه اليهود فى خيبر[٢] .

وقد جزم الدكتور جواد على الذى هو أكثر المؤرخين اعتناء بتاريخ العرب قبل الإسلام، بعدم صحة ماتناقله الإخباريون من أن الوجود اليهودى فى خيبر وكل أعالى الحجاز يرجع إلى أواخر عهد النبى موسى عليه السلام قائلا : [٣] .

أما متى دخل اليهود منطقة يثرب، وكيف استقروا فى خيبر والمناطق الأخرى فعلم ذلك عند الله، وليس الذى يرويه أهل الأخبار عن إرسال موسى جيشا إلى الحجاز، واستقرار ذلك الجيش فى يثرب بعد فتكه بالعماليق، وبعد وفاة موسى، ثم مايذكرونه من هجرة داود مع سبط يهوذا، ثم عودته إلى إسرائيل .. [٤] وأمثال هذا إلاقصصا من هذا النوع الذى ألفنا قراءته فى كتب أهل الأخبار، لاأستبعد أن يكون مصدره يهود تلك المنطقة ، أو من أسلم منهم، لإثبات أنهم ذوو نسب وحسب فى هذه الأرض قديم .. وأنهم كانوا ذوى بأس شديد، وأن تاريخهم فى هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل ، وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين .

وسبق أن ذكرنا فى حديثنا عن هجرة اليهود إلى الجزيرة طرفا من هذا الخلاف، وأن الرأى القريب من الصواب هو أن تاريخ هجرة اليهود إلى الجزيرة كان بعد تدمير « أور شليم » الثانى على يد « تيطس » الرومانى ، وكان حلولهم بها من أهم أسبابه فرارهم من وجه الرومان، حتى ينجو من بطشهم وفتكهم بهم .

---

(١) فتح البارى : ٧: ٤٦٤، والمواهب اللدنية : ٢: ٢١٧، وغزوة خيبر : ٢٤ .

(٢) انظر : كتاب العبر، لابن خلدون : القسم الأول : المجلد الثانى : ٢: ١٦٨ والأغانى: للأصبهانى : قصة اليهود : ١٩ ووفاء الوفاء للسمهودى : ١: ١٥٦ وما بعدها .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٦: ١٠ بتصرف .

(٤) انظر : وفاء الوفاء : ١: ١٦٠ .

يقول الدكتور « إسرائيل ولفنسون » : [١] .

« بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠م التي انتهت. بخراب فلسطين، وتدمير هيكل بيت المقدس، وتشتت اليهود فى أصقاع العالم، قصدت جموع قصيرة من اليهود بلاد العرب، كما حدثنا بذلك المؤرخ اليهودى « يوسيفوس » الذى شهد تلك الحروب، وكان قائد البعض وحداتها » .

ثم يقول : « وتؤيد المصادر العربية كل هذا : فقد ذكر صاحب الأغانى أنه لما ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعا بالشام فوطئوهم وقتلوهم، ونكحوا نساءهم، خرج بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو بهدل، هاربين منهم إلى من بالحجاز من بنى إسرائيل لـمّا غلبتهم الروم على الشام، فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم فى طلبهم ليردهم فأعجزوه، وكان مابين الشام والحجاز مغاوز وصحارى لانبات فيها ولاماء ، فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا، وسمى الموضع « تمر الروم » فهو اسمه إلى اليوم ».

ويرجح الدكتور جواد على ـ أيضا ـ أن هجرة اليهود إلى الجزيرة كانت بعد غزو الرومان لهم فيقول : [٢] .

« أما ما ورد فى روايات أهل الأخبار عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالى الحجاز على أثر ظهور الروم على بلاد الشام، وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم، مما اضطر ذلك بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، فإنه يستند إلى أساس تاريخى صحيح.، فالذى نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين ».

اليهود عنصر دخيل فى الجزيرة :

وسواء قلنا بهذا أو بذاك فإن المجمع عليه عند جميع المؤرخين ـ إسلاميين وغير إسلاميين ـ أن اليهود فى خيبر والمدينة وباقى المناطق هم أجانب دخلاء.، لاتربطهم بأى من سكان هذه المناطق فى جزيرة العرب أية رابطة من لغة أودين أودم ، ـ كما يقول الأستاذ باشميل ـ [٣] وإنما هم لاجئون سيطروا على خيبر وباقى المناطق فى غفلة من

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب: ٩.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦ : ١٠.

(٣) غزوة خيبر: ٣٤ وما بعدها بتصرف.

الزمن، وفى وقت كان العرب الوثنيون فيه تمزقهم روح الجاهلية القبلية الضيقة، التى ساهم وجودها وتحكمها فى المجتمع العربى .. فى التمكين لهؤلاء اليهود الدخلاء فى هذه المناطق من جزيرة العرب .. الذين زادوا المجتمعات العربية فسادا على فساد، كما هى طبيعة العنصر اليهودى الذى لايكون له نفوذ فى أرض إلا وأشاع فيها الفساد، وبذر بذور الشحناء، وأشعل نيران التفرقة والتخاصم بين أهلها !

وقد ظل العنصر اليهودى الدخيل هذا شأنه منذ استوطن خيبر، وباقى الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية، حتى اقتلع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ جذور هذا العنصر نهائيا بالعمليات الحربية التى قام بها فى خيبر ، وغيرها من المناطق الأخرى التى كانت واقعة تحت سلطان هؤلاء اليهود .

قوة يهود خيبر :

وشىء يجب ألايغيب عن بال المؤرخ ، وهو أن يهود خيبر كانوا ـ عبر العصور ـ بالإضافة إلى تفوقهم على جميع اليهود من ناحية القوة .. كانوا متماسكين فيما بينهم .. عكس اليهود الآخرين الذين لم ينجوا من آفات الاختلافات ... بل والاقتتال فيما بينهم ـ كما هو شأن اليهود غالبا ـ لأن قلوبهم شتى .. كما أن يهود خيبر لم ينشب بينهم وبين جيرانهم العرب الوثنيين نزاع مسلح، مما ساهم فى جعلهم أقوى قوة يهودية دخيلة فى بلاد العرب !

فإذا كان اليهود فى المدينة ـ كما أسلفنا ـ لم يسلموا من نشوب حرب أهلية قبلية فيما بينهم ، فرّقت جمعهم، وصدّعت كيانهم، كما حدث بين يهود بنى قينقاع وبنى النضير من تخاصم وتقاتل وعداء شديد، ظل أثره باقيا بينهما، حتى بعد ظهور الإسلام ومخاصمة الفريقين له .

إذا كان اليهود فى المدينة قد تعرضوا لهذه الانشقاقات، وتلك الاصطدامات الدامية، فيما بينهم عبر وجودهم فى المدينة، فإن يهود خيبر لم يرو أحد من المؤرخين ـ فيما أعلم ـ أنهم تعرضوا منذ وطئت أقدامهم منطقة خيبر، لشىء مما تعرض له اليهود فى المدينة من اختلافات شديدة، واصطدامات دامية .

الأمر الذى جعل يهود خيبر طيلة وجودهم في هذه المنطقة متحدين لم تبدد شيئا من طاقاتهم العسكرية أو وحدتهم السياسية حروب أهلية، أو نزاعات قبلية، كما هو الحال بالنسبة لليهود فى المدينة .

وإذا كان اليهود فى المدينة قد تعرضوا فى الفترة التى مرت على وجودهم قبل الرسالة والرسول، لضربات عسكرية من جيرانهم العرب، كادت تقتلع وجودهم، وتهدم كيانهم .. كما حدث لهم فى أوائل القرن الأول الميلادى على أيدى المهاجرين اليمانيين من منطقة «مأرب» ـ الأوس والخزرج، الذين منذ استقرارهم فى المدينة ظلوا ينازعون هؤلاء اليهود السلطان، لاستئثارهم بالمناطق الزراعية الخصبة دونهم .. ولنظرة هؤلاء اليمانيين إلى هؤلاء اليهود كعنصر أجنبى دخيل على بلاد العرب الأمر الذي ساعد على إشعال نار المقت فى نفوس اليمانيين، حتى تمكنوا من خضد شوكتهم، بمساعدة إخوتهم الغساسنة اليمانيين الذى خفُّوا لنجدتهم من الشام . ثم من قهرهم نهائيا بقيادة مالك بن العجلان الذى وضع حدا قبل الإسلام لسطان هؤلاء اليهود المطلق على المدينة.

فقد ذكر هؤلاء المؤرخون أن الضربة العنيفة التى أنزلها الأوس والخزرج باليهود بقيادة سيد الأوس والخزرج مالك بن العجلان قبل الإسلام بعدة قرون، كادت تستأصل شأفة العنصر اليهودى الدخيل على الجزيرة العربية، لولا أن زعماء اليهود ـ كعادتهم دائما ـ انحنوا للعاصفة وخضعوا وسلموا بالهزيمة .. ثم لكى ينجوا من الهلاك قبلوا الانضواء بالحِلْف تحت لواء مختلف القبائل المنتصرة عليهم .. فاندمجوا فيهم، وبذلك ضمنوا سلامة أجسادهم وممتلكاتهم، ولكن على حساب التسليم بهدم سلطانهم السياسى والعسكرى الذى كان سائدا !

وهكذا فإن هؤلاء اليهود إذا كانت الهزات العنيفة التى زلزلت سلطانهم ومزقت و[illegible] ، سواء بسبب تعرضهم لهجمات المهاجرين اليمانيين الضاربة، أو بسبب النزاعات القبلية المسلحة التي نشبت بين اليهود أنفسهم قبل ظهور الإسلام بعدة قرون، فإن يهود خيبر ظلوا طيلة وجودهم بمنجاة عن مثل هذه الهزات الخطيرة التى ذهبت بسلطان اليهود فى المدينة .

الأمر الذى أبقى على وحدة يهود خيبر وتماسكهم . وذلك دون ماشك من أعظم أسباب تفوقهم فى القوة والمنعة والشجاعة على جميع العناصر اليهودية الدخيلة المبعثرة فى ذلك الركن من جزيرة العرب .

فالمؤرخون مجمعون على أن يهود خيبر أشجع وأقوى العناصر اليهودية المحاربة في جزيرة العرب، دون مااستثناء .

ولعل أكبر دليل على صحة هذا القول ، هو أن اليهود في المدينة ـ بالرغم من كونهم أكثر عددا وأوسع ثراء من يهود خيبر ـ فإنهم قد جبنوا عن مواجهة المسلمين في أية معركة فاصلة ـ كما أسلفنا ـ إذ فضّلوا الاستسلام، ثم النفى ، على خوض أية معركة فاصلة، عندما وصلوا فى عدائهم للمسلمين إلى درجة النزاع المسلح، كما حدث لبنى قينقاع، ثم بني النضير ، وأخيرا بنى قريظة !

وكر للتآمر على المسلمين :

وظل يهود خيبر على الحياد حيال النزاع المسلح إلى أن نزل عليهم شيطان بنى النضير ـ حيى بن أخطب ـ منفيا هو وقومه من المدينة ـ كما عرفنا ـ فى السنة الرابعة من الهجرة.

ففى هذه السنة طرأ تحول خطير على موقف الحياد الذين كانت خيبر تلتزمه إزاء تلك النزاعات المسلحة التي نشبت عبر العصور بين المشركين وبين يهود يثرب قبل الإسلام ، ثم بين هؤلاء اليهود وبين المسلمين بعد بزوغ شمس الإسلام .

فلم يكد بنو النضير بقيادة شيطانهم ـ حيى بن أخطب ـ ينزلون على خيبر، ويستقر بهم المقام فيها، حتى تحولت من منطقة حيادية إلى أخطر وكر تحاك فيه الدسائس ، وترسم خطط التآمر على الرسالة والرسول ﷺ تحت إشراف هؤلاء اليهود المنفيين من المدينة .

وسبق أن عرفنا موقف شيطان بنى النضير وقت إعدامه مع بنى قريظة، وقوله للرسول الحبيب المحبوب ﷺ :

أما والله مالمت نفسى فى عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل ، ثم أقبل على الناس، فقال : أيها الناس، إنه لابأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة على بنى إسرائيل ثم جلس فضربت عنقه ! (١) .

إنه الحقد اليهودى !

ومن ثم أصبح وكر يهود خيبر يجمع كل الإمكانات الحربية والمالية فى خدمة أغراض العدوان على الرسالة والرسول !

---

(١) الروض الأنف : ٣: ٢٧٠ .

وعد الله المسلمين بفتح خيبر :

وهنا نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ (١)

نقرأ هذه الآيات لنبصر من خلالها وعد الله المسلمين بفتح خيبر كما روى ابن جرير عن مجاهد قال : عجل لكم خيبر . وعن قتادة : هى خيبر . وقال آخرون : بل عنى بذلك: الصلح الذى كان بين رسول الله ﷺ وبين قريش . وروى عن مجاهد أيضا : المغانم الكثيرة التى وعدوا : ما يأخذونها إلى اليوم . قال ابن جرير: وعلى هذا التأويل يحتمل الكلام أن يكون مراد بالمغانم الثانية المغانم الأولى، ويكون معناه عند ذلك ، فأثابهم فتحا قريبا، ومغانم كثيرة يأخذونها، وعدكم الله أيها القوم هذه المغانم التي تأخذونها. وأنتم إليها واصلون عدة فجعل لكم الفتح القريب من فتح خيبر. ويحتمل أن تكون الثانية غير الأولى، وتكون الأولى من غنائم خيبر، والغنائم الثانية التى وعدهموها من غنائم سائر أهل الشرك سواهم. وقال آخرون : هذه المغانم التى وعد الله هؤلاء القوم هى مغانم خيبر .

وأولى الأقوال فى تأويل ذلك بالصواب ـ كما قال ابن جرير ـ ماقاله مجاهد ، وهو أن الذى أثابهم الله من مسيرهم ذلك مع الفتح القريب المغانم الكثيرة من مغانم خيبر، وذلك أن المسلمين لم يغنموا بعد الحديبية غنيمة، ولم يفتحوا فتحا أقرب من بيعتهم رسول الله ﷺ بالحديبية إليها من فتح خيبر وغنائمها . (٢)

---

(١) الفتح : ١٨ ـ ٢٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٦ : ٨٩ ـ ٩٠ بتصرف ، وانظر : تفسير القاسمى : ١٥ : ٥٤١٨.

وعلى كل فإننا نقف مع هذه الآيات القرآنية التي تذكرنا بتلك المجموعة الفريدة السعيدة التي بايعت الرسول الحبيب المحبوب ﷺ تحت الشجرة .. تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى سمعت قول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

تلك المجموعة الفريدة السعيدة التى سمعت قول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما رواه الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية :

« **أنتم خير أهل الأرض** »

وكنا ألفاً وأربعمائة. ولو كنت أُبصر اليوم لرأيتكم مكان الشجرة.(١)

تلك المجموعة الفريدة السعيدة هى التى بشرها الحق تبارك وتعالى بما أعد لها من مغانم كثيرة وفتوح، فى مقدمتها خيبر، وماجاء بعد ذلك ، وما أحاطها به من رعاية وحماية فى هذه الرحلة، وفيما سيتلوها ، وفيما قدر لها من نصر موصول بسنته التى لاينالها التبديل أبدا.. وفى الوقت ذاته يندد بأعدائها الذين كفروا تنديدا شديدا، ويكشف لها عن حكمته فى هذا الذى كان فى هذا العام .. ويؤكد لها صدق الرؤيا التى رآها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن دخول المسجد الحرام. وأن المسلمين سيدخلون آمنين لا يخافون. وأن دينه سيظهرعلى الدين كله فى الأرض جميعا، فى خيبر وغيرها، ولوكره أهل الكتاب والمشركون .

يقول صاحب الظلال: (٢) وإننى لأحاول اليوم من وراءِ ألف وأربعمائة عام أن أستشرف تلك اللحظة القدسية التى شهد فيها الوجود كله ذلك التبليغ العلوى الكريم من الله العلى العظيم إلى رسوله الأمين عن جماعة من المؤمنين ..

أحاول أن أستشرف صفحة الوجود فى تلك اللحظة وضميره المكنون، وهو يتجاوب جميعه بالقول الإلهى الكريم، عن أولئك الرجال القائمين إذ ذاك فى بقعة معينة من هذا الوجود ..

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤١٥٤) ومسلم : ٣٣ ـ الإمارة ٧١ (ت١٨٥٦) .

(٢) فى ظلال القرآن : ٦: ٣٣٢٥ ومابعدها بتصرف .

وأحاول أن أستشعر بالذات شيئا من أولئك السعداء الذين يسمعون بآذانهم ، أنهم منهم، بأشخاصهم وأعيانهم، يقول الله عنهم : لقد رضى عنهم . ويحدد المكان الذى كانوا فيه، والهيئة.التى كانوا عليها، حين استحقوا هذا الرضى :

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

يسمعون هذا من نبيهم الصادق المصدوق، عن الله العظيم الجليل.

يا لله ! : كيف تلقوا ـ أولئك السعداء ـ تلك اللحظة القدسية وذلك التبليغ الإلهى؟

التبليغ الذى يشير إلى كل أحد ، فى ذات نفسه ، ويقول له : أنت. أنت بذاتك . يبلغك الله لقد رضي عنك . وأنت تبايع تحت الشجرة! وعلم ما فى نفسك . فأنزل السكينة عليك ! وأثابك فتحا قريبا ! ووعدك مغانم خيبر وغيرها !

إن الواحد منا ليقرأ أو يسمع :

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (١)

فيسعد . يقول في نفسه : ألست أطمع أن أكون داخلاً في هذا العموم ؟

ويقرأ أو يسمع :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٢)

فيطمئن . يقول فى نفسه: ألست أرجو أن أكون من هؤلاء الصابرين ؟

وأولئك الرجال السعداء يسمعون ويبلغون. واحدا واحدا. أن الله يقصده بعينه وبذاته. ويبلغه : لقد رضى عنه ! وعلم ما فى نفسه. ورضى عما فى نفسه! وأثابه فتحا قريبا ! ووعده مغانم خيبر وغيرها !

يالله ! إنه أمر مهول !

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

---

(١) البقرة : ٢٥٧ .
(٢) البقرة : ١٥٣ الأنفال : ٤٦ .

علم ما فى قلوبهم من حمية لدينهم لا لأنفسهم . وعلم ما فى قلوبهم من الصدق فى بيعتهم . وعلم ما فى قلوبهم من كظم لانفعالاتهم تجاه الاستفزاز، وضبط لمشاعرهم، ليقفوا خلف كلمة الحق طائعين مسلمين صابرين .

﴿ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ ﴾

بهذا التعبير الذى يرسم السكينة نازلة فى هدوء ووقار، تضفى على تلك القلوب الحارة المتحمسة المتأهبة المنفعلة، بردا وسلاما وطمأنينة وارتياحا .

﴿ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾

وفتح خيبر ـ كما أسلفنا ـ هو هذا الفتح القريب الذى جعله الله للمسلمين ، وأولى الأقوال ـ كما قال ابن جرير ـ وهو أولى بالصواب ..

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ ﴾

إما مع الفتح إن كان المقصود هو فتح خيبر. وإما تاليا له، إن كان الفتح هو هذا الصلح، الذى تفرغ به المسلمون لفتوح شتى .. وتلك المعاهدة التى تمثل أساسا لسياسة علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات حربا وسلما ..

﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾

وهو تعقيب مناسب للآيات قبله، ففى الرضى والفتح والوعد بالغنائم تتجلى القوة والقدرة، كما تتجلى الحكمة والتدبير .. وبهما يتحقق الوعد الإلهى الكريم ..

علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات :

وهنا أجدنى مضطراً إلى النظر بسرعة في قصة هذه المعاهدة التى تمثل أساسا لسياسة علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات البشرية حربا وسلما، وهى تصور ـ فى جملتها ـ جوانب من أهم منهج الرسالة الخالدة ـ كما يقول المرحوم الشيخ محمد الصادق عرجون ـ (١) وهى جوانب تربوية اجتماعية، جعلها الإسلام خصائص مميزة لمجتمعه، من بين سائر المجتمعات البشرية فى الأرض .. حتى تتبين معالم علاقة المجتمع المسلم بهذه المجتمعات كلها، فى كل زمان ومكان، وجيل وقبيل ..

---

(١) محمد رسول اللّه: ٤ : ٢٦١ وما بعدها بتصرف.

هذه المعاهدة تعد أساسا عمليا لتطبيق التشريع الإسلامى المتعلق بتحديد العلاقة فيما بين المسلمين وغيرهم من الطوائف والأمم والشعوب، وأساسا لكل مايتصل بفضيلة الوفاء بالعهد مهما كانت مرارته وشدته، ومهما تكن آثاره وقسوته .

ذلك لأن النبى ﷺ ، وهو رسول الله الذي بعثه لدعوة الناس كافة إلى الهدي ودين الحق، ليخرجهم به من ظلمات الكفرو والجهالة إلى نور الإيمان والعلم، هو الذى تولى بنفسه عقد هذه المعاهدة ورضي شروطها ، وكان على علم بما فيها من تفاوت فى موازين عدالة المعاهدات، لم يُخدع فيها عن صواب الرأى، ولكنه أراد بتوفيق الله وتسديده أن يفتح للدعوة بابا سلميا تقف من ورائه خصومة تشتعل بين طرفيها حرب عصبية لا هواد فيها .

وهى حرب يتمثل فيها الإيمان بالحق فى أصدق صوره وأرسخها يحمل رايتها الإسلام والمسلمون بقيادة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ . وهى حرب يتمثل فيها الظلم والطغيان ، والجهالة فى أبشع صورها يحمل رايتها الشرك والمشركون بقيادة جبابرة الطغاة البغاة العتاة، من فجرة الوثنيين وطواغيت قريش .

والنبى ﷺ إذ يتولى بنفسه تطبيق مبدأ من أهم مبادئ السياسة الشرعية لأمته، إنما يرسم بنفسه طريق التأسى به لمن يتولى بعده أمرا من أمور الحياة فى مستقبل هذه الأمة .

وعمله ﷺ فى تطبيق المبادئ التشريعية هو الأصل الأول فى البناء التربوى للمجتمع الإسلامى ، ومن ثم كان عقد هذه المعاهدة، والوفاء بشروطها، له الأهمية الكبرى فى تأسيس التشريع الإسلامى المحدد للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم والجماعات .

وكان لهذه المعاهدة مقدمات كانت الطريق إلى الوصول إليها وكان لها آثار بعيدة المدى ، عميقة الجذور فى تاريخ المد الإسلامى وانتشار الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته .

فأما آثارها فتتمثل فى أحداث التاريخ ، وفى سياسة الفتوحات التى جاءت متتابعة بعد توقيعها .. ومنها فتح خيبر والقضاء على اليهود عسكريا، وما جاء بعد ذلك من فتوح .

مقدمات المعاهدة :

وأما مقدماتها فلم تكن تؤذن بوقوعها على صورتها التى وقعت بها ولذلك كان وقع المفاجأة بها قاسيا شديدا على نفوس المسلمين، وهذه المقدمات بعضها بعيد، وبعضها قريب، ولكنها متصله الحلقات، متسلسلة الوقائع .

فالنبى ﷺ من عند الله، ختم الله به الرسالات الإلهية، ورسالته هى رسالة الإسلام، والإسلام ثورة إصلاحية نيط بها تغيير جذرى فى بناء المجتمع البشرى ، وإصلاح مافسد فى أممه وشعوبه فكريا، وسياسيا، واجتماعيا، وروحيا، وكان المجتمع الذي نبتت فيه هذه الأمة الإسلامية مجتمعا مريضا، أسقمه المرض إلى حد جعل كيانه الاجتماعى والروحى كيانا متهاويا،لايتماسك فى عقيـدة يؤيدها عقل أو منطق ، حتى الكتابية ـ كما أسلفنا ـ ولايتماسك فى نظام اجتماعى يؤيده علم يهدى إلى حق وخير .

بناء إنساني ينخر فيه سوس الفناء :

ويحيط بهذا المجتمع المتهافت فى بنائه الاجتماعى مجتمعات بشرية ممزقة الأوصال، تعيش على أصداء باهتة، لتاريخ ظلوم غشوم، قاتم الآفاق، يحمل رايته السوداء دولتان أو أمتان كانتا فى عهد إشراق شمس الدعوة الإسلامية شبحا لبناء إنسانى متهدم، ينخر فيه سوس الفناء وتنسج حوله الحياة أكفان الزوال .

ففى الشرق كانت بقايا دولة الفرس تتنفس لاهثة، من طول ماعانت من أمراض الاضطرابات الداخلية، والخلافات المذهبية، وآثار الحروب الخارجية مع منافسيهم الرومان .

وفى الغرب كانت دولة الرومان تطفو على سطح الحياة جسدا عريضاً لا روح فيه، أنهكته المظالم الإقطاعية، والمجادلات المذهبية، والحروب الخارجية مع الفرس .

وبين هاتين الدولتين أو الأمتين شراذم إنسانية المظهر، متناثرة هنا وهناك تناثر الدَّقَل أو الحصى على الأرض ـ كما عرفنا عن حال اليهود ومن على شاكلتهم ـ تعيش كما تعيش الأنعام فى غياهب البرارى وغياض الغابات إن أدركتها يد إحدى الدولتين اعتصرتها إن توهمت فيها شيئا من عصارة، حتى تتركها عودا ناشفا لاتطعمه إلا نيران الجهالة والهمل .

طريق الدعوة :

وفى هذا الجو القاتم أشرقت شمس الهداية من أفق الجزيرة العربية ببعثة محمد بن عبد الله رسولا إلى الناس كافة بشريعة هى خاتمة الشرائع الإلهية، فدعا أول مادعا قومه، استجابة لأمر الله له فى قوله :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (١)

---

(١) الشعراء : ٢١٤ .

فدعاهم إلى توحيد الله وترك عبادة الأوثان، وحذّرهم من عقابه، وأنذرهم بطشه ، فتولّوا عنه مدبرين، وما آمن منهم إلا قليل، فصبر عليهم وصابرهم، وتحمل منهم أشد الأذى، ولم ينتهوا حتى تآمروا على قتله، ولما لم يجد سبيلا إلى قلوبهم عرض نفسه ودعوته على غيرهم من القبائل والبطون، يذهب إليهم في مواطنهم ومحافلهم، أو يستقبل الوافدين من قبائل العرب وبطونها إلى بلده، ليعظّموا بيت ربهم بما تعودوه فى جاهليتهم من مناسك وشعائر ، وأقبل عليه أبناء المدينة أوسهم وخزرجهم، وجمع الله به كلمتهم بعد فرقة وقتال بينهم، وبايعوه على أن ينصروه نصرهم لأنفسهم، ويحموا دعوته حمايتهم لأولادهم وأعراضهم، إن أوى إليهم وهاجر إلى بلدهم، فبايعهم وأشار على أصحابه الذين أوذوا في سبيل الله بالهجرة إلى إخوانهم أنصار الله وأنصار رسوله ودينه ..

وفى المدينة دوّى صوت الدعوة حتى عم أرجاءها، فلم يبق بيت من بيوتها إلادخله الإسلام، وذُعرت مكة، بل رُعبت وركبت ظهر الشيطان، فجرى بها إلى أسوإ تدبير، وأعلم الله نبيه ﷺ بما بيتت من كيد ومكر، فخرج إلى المدينة مهاجرا يصاحبه الصديق رضى الله عنه .

واستقر رسول الله ﷺ بالمدينة ، وأقبل عليه أهلها يؤمنون بدعوة الله عزوجل .

اليهود والمنافقون :

وكانت المدينة ـ كما أسلفنا ـ مستوطنا لجاليات من اليهود ، يملكون الثروة فيها، فتحرك فيهم عرق الحسد فنافقوا ـ كما هو ديدن اليهود عبر التاريخ ـ حين ظهرت القوة، واستنفقوا قوما ممن شاركوهم في رذيلة الحسد، وتعاونوا وإياهم على الإثم والعدوان، وهموا بما لم ينالوا، واليهود والمنافقون جبناء لايجرؤون على الوقوف نهارا جهارا أمام دعوة الحق وجندها وأنصارها، فهم كما وصفهم الله تعالى بوصف إخوانهم ـ كما سبق ـ فى قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ
نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ

وَرَآءِ جُدُرِۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ (١)

وفى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ (٢)

وفى قوله :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ (٣)

ورأى النبى ﷺ ـ كما أسلفنا ـ أن يهادن اليهود، ويفك عرى قوتهم، ويذل غرورهم، ويكبت حسدهم، ولكنهم هم اليهود دائما، حيث الخيانة والغدر ! ،كان الإذن بالقتال، وكان النصر للرسالة والرسول ، ومن ثم ظهر مكر اليهود وخبث النفاق، واشرأبت أعناقهم خشية أن تعلو كلمة الإسلام، فنقضوا العهود والموادعات، وتجمع أحزاب الكفر والضلال من اليهود والمشركين مع شراذم المنافقين، وتعاهدوا على الغدر والفجور، وكانت وقائع وأحداث، من أهمها غزوة الأحزاب التي تألب فيها المشركون من ألفاف القبائل التى لم يدخل الإسلام قلوبها، وظاهرهم اليهود ـ كما أسلفنا ـ وكذلك المنافقون ، فهزمهم الله، ونصر جنده .

الرسول ﷺ يمد يد المسالمة :

ورأى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعد انتصاراته المتوالية أن يمد يد المسالمة والرفق إلى مكة، وأن يوادع أهلها موادعة من لايرغب في الحرب، ولايستهدف العدواة والقتال، بل يدعو إلى الأمن والسلام، وخرج إلى العمرة بمن معه من المهاجرين والأنصار، عامدا إلى البيت الحرام زائرا، وساق معه الهدى ليأمن الناس، ويعلموا أنه خرج معظما للبيت،

---

(١) الحشر : ١١ ـ ١٤ . (٢) المنافقون : ٤ . (٣) البقرة : ٢٠٤ ـ ٢٠٦ .

متعبداً لربه، ولكن غطرسة المشركين الباغية، وعجرفتهم الطاغية، أبيا إلا عنادا فاجرا، وعقدوا الخناصر على أن يصدوا رسول الله ﷺ وأصحابه عن تعظيم بيت ربهم فى رحلتهم المسالمة ..

أثر هذه السياسة :

وكان للسياسة الحكيمة الحازمة المسالمة التى ساس بها رسول الله ﷺ الموقف أثرها فى توجيه الأمور إلى نهايتها التى قصد إليها رسول الله ﷺ من هذه السياسة التى تحمّل فيها على نفسه ومجتمعه المسلم، وامتحن فيها أصحابه رضى الله عنهم أشد الامتحان، فصبروا للمحنة بعد أن محّصوا تمحيصا أخلص أنفسهم للتأسى والتسليم بما يراه رسول الله ﷺ ، ولو خفيت عليهم حكمته وأسراره وكانت المبايعة ... وكانت الصورة الوضيئة المضيئة لتلك المجموعة الفريدة السعيدة التي هى خير أهل الأرض كما قال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .. كانت تلك الصورة وسط هذه المعالم المترابطة ..

بشرى من الله :

وبعد التبليغ العلوى الكريم للرسول الأمين عن المؤمنين المبايعين ـ كما أسلفنا ـ يجىء الحديث إلى المؤمنين أنفسهم .. الحديث عن هذا الفتح الذى تلقوه صابرين مستسلمين:

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (١)

وهذه بشرى من الله للمؤمنين سمعوها وايقنوها، (٢) وعلموا ان الله اعد لهم مغانم كثيرة، وعاشوا بعد ذلك ما عاشوا وهم يرون مصداق هذا الوعد الذى لايتخلف . وهنا يقول لهم : إنه قد عجل لكم هذه .. وهذه خيبر ـ على الراجح كما أسلفنا ـ لأنها أقرب غنيمة وقعت بعد الحديبية ..

ويمنّ الله عليهم بأنه كف أيدى الناس عنهم، وفى هذا يقول ابن جرير : (٣) اختلف

(١) الفتح : ٢٠ ـ ٢١ .
(٢) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٣٢٦ وما بعدها بتصرف .
(٣) تفسير الطبرى: ٢٦ : ٩٠ بتصرف .

أهل التأويل فى الذين كُفَّت أيديهم عنهم من هم ؟

فقال بعضهم : هم اليهود، كف الله أيديهم عن عيال الذين ساروا من المدينة مع رسول الله ﷺ إلى مكة !

وروى عن قتادة: عن بيوتهم وعن عيالهم بالمدينة، حين ساروا إلى الحديبية وإلى خيبر، وكانت خيبر فى ذلك الوجه .

وقال آخرون : بل عنى بذلك أيدى قريش، إذ حبسهم الله عنهم، فلم يقدروا على مكروه. قال ابن جرير : والذى قاله قتادة فى ذلك عندى أشبه بتأويل الآية، وذلك أن كف أيدي المشركين من أهل مكة عن أهل الحديبية قد ذكره الله بعد هذه الآية في قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ (١)

فعلم بذلك أن الكف الذى ذكره الله فى قوله :

﴿ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ ﴾

غير الكف الذى ذكره الله بعد هذه الآية فى قوله :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾

وعلى كل فقد كف الله أيدى هؤلاء وهؤلاء الذين يتربصون بهم الدوائر. وهم قلة على كل حال، والناس كثرة، ولكنهم كانوا هكذا فى تلك الصورة الوضيئة المضيئة ـ كما عرفنا ـ فكف الله أيدى الناس عنهم .

﴿ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

جزاء طاعتكم وامتثالكم وصدق سريرتكم ..

وهكذا يجمع لهم بين المغنم بنالونه، والهداية يرزقونها. فيتم لهم الخير من كل جانب.

وهكذا يعلمهم أن اختيار الله لهم هو الاختيار، ويربى قلوبهم على الطاعة والامتثال.. كذلك يمنّ عليهم ويبشرهم بأخرى غير هذه لم يقدروا عليها بقوتهم، ولكن الله تولاها عنهم بقدرته وتقديره :

---

(١) الفتح : ٢٤ .

﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾

وتختلف الروايات فى هذه الأخرى. أهى فتح مكة ؟ أهى فتح خيبر؟

أهى مملكتى كسرى وقيصر ؟ أهى فتوح المسلمين التى تلت هذه الوقعة جميعا ؟

وأقرب مايناسب السياق أن تكون هى فتح مكة، لما روى ابن جرير عن قتادة قال : بلغنا أنها مكة. قال ابن جرير : (١) وهذا القول الذى قاله قتادة أشبه بما دل عليه ظاهر التنزيل ..

وبمناسبة هذه الإشارة إلى الغنيمة الحاضرة، والغنيمة التى قد أحاط الله بها، وهم فى انتظارها، يقرر لهم أنهم منصورون :

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

وهكذا يربط نصرهم وهزيمة هؤلاء وأولئك بسنة الله الثابتة التى لاتتبدل. فأية سكينة؟ وأية ثقة ؟ وأى تثبيت يجده أولئك المؤمنون فى أنفسهم، وهم يسمعون أن نصرهم وهزيمة أعدائهم من اليهود ومن على شاكلتهم سنة من سننه الجارية فى هذا الوجود ؟

وهى سنة دائمة لاتتبدل، ولكنها قد تتأخر إلى أجل . ولأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم، واستقامتهم الاستقامة التى يعرفها الله لهم. أوتتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، لتكون له قيمته وأثره. أو لغير هذا وذاك مما يعلمه الله. ولكن السنة لاتتخلف . والله أصدق القائلين :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

إنها سنة ثابتة لا تتبدل .

عدم قبول تجنيد المخلفين :

وقبل هذه الآيات التى معنا، وهى تذكر وعد الله المسلمين بفتح خيبر، نقرأ قول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) تفسير الطبرى: ٢٦ : ٩٢ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ
فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا
فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ
اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا
﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي
قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن
يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا
انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ
قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا
لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي
بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن
تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى
الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١)

وهنا نطالع تصويراً رهيبا جليلا للبيعة بينهم وبين الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ، ونطالع حال الواحد منهم وهو يشعر أن يد الله فوق يده وأيدى الجميع .. (٢) ومن ؟ الله ! ياللهول! وياللروعة ! وياللجلال !

إن هذه الصورة لتستأصل من النفس خاطر النكث بهذه البيعة ـ مهما غاب شخص رسول الله ﷺ ـ فالله آخذ فى هذه البيعة ومعط، وهو عليها رقيب .

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ
فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

---

(١) الفتح : ١٠ ـ ١٧ .

(٢) فى ظلال القرآن : ٦ : ٣٣٢٠ وما بعدها بتصرف .

ويلتفت بالحديث إلى المخلفين من الأعراب الذين أبوا أن يخرجوا مع رسول الله ﷺ ، لسوء ظنهم بالله، ولتوقعهم الشر والضر للمؤمنين الخارجين، الذاهبين إلى قريش فى عقر دارها، وهى غزت المدينة قبل ذلك عامين متواليين.

يلتفت إليهم لينبىء الرسول الحبيب المجبوب ﷺ عما سيعتذون به إليه، بعد عودته سالما، وقد هادنته قريش ولم تقاتله، وعقدت معه معاهدة يبدو فيها ـ مهما كانت شروطها ـ التراجع من قريش، واعتبار الرسول الحبيب المحبوب ﷺ نداً لها تهادنه، وتتقى خصومته..

ويكشف له عن الأسباب الحقيقية لعدم خروجهم معه، ويفضحهم ويقفهم مكشوفين أمام رسول الله ﷺ وأمام المؤمنين.

كما ينبئه بما فيه البشرى له وللخارجين معه، وهو أنهم سيخرجون إلى مغانم قريبة ميسورة، وأن المخلفين من الأعراب سيطلبون الخروج معه، لينالوا من هذه الغنائم السهلة، ويلقنه طريقة معاملتهم حينذاك والرد عليهم. فلا يقبل تجنيد المخلفين فى هذا الوجه القريب الميسور، الذى سيقتصر على من خرجوا من قبل وحضروا الحديبية. إنما ينبئهم بأن هنالك وجها آخر فيه مشقة، وفيه قتال مع قوم أولى بأس شديد. فإن كانوا حقا يريدون الخروج فليخرجوا يومئذ، حيث يقسم اللّه لهم بما يريد . فإن أطاعوا كان لهم الأجر الكبير، وإن عصوا كما عصوا من قبل لهم العذاب الشديد..

والقرآن الكريم لا يكتفى بحكاية أقوال المخلفين والرد عليها، ولكنه يجعل من هذه المناسبة فرصة لعلاج أمراض النفوس، وهواجس القلوب، والتسلل إلى مواطن الضعف والانحراف لكشفها تمهيدا لعلاجها والطب لها. ثم لإقرار الحقائق الباقية والقيم الثابتة، وقواعد الشعور والتصور والسلوك .

فهؤلاء المخلفون سيقولون اعتذارا عن تخلفهم :

﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا ﴾

وليس هذا بعذر. فللناس دائما أهل وأموال. ولو كان مثل هذا يجوز أن يشغلهم عن تكاليف العقيدة، وعن الوفاء بحقها ما نهض أحد قط بها.. وسيقولون :

﴿ فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾

وهم ليسوا صادقين فى طلب الاستغفار، كما ينبئ الله رسوله ﷺ:

﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

هنا يرد عليهم بتقرير حقيقة القدر الذى لا يد فعه تخلف، ولا يغيِّره إقدام، وبحقيقة القدرة التى تحيط بالناس، وتتصرف فى أقدارهم كما تشاء. وبحقيقة العلم الكامل الذى يصرف الله قدره على وفقه:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

وهو سؤال يوحى بضرورة الاستسلام لقدر الله، والطاعة لأمره بلا توقف ولا تلكؤ. فالتوقف أو التلكؤ لن يدفع ضررا، ولا يؤخر نفعا. وانتحال المعاذير لايخفى على علم الله. ولايؤثر فى جزائه وفق علمه المحيط. وهو توجيه تربوى فى وقته وفى جوه وفى مناسبته على طريقة القرآن:

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾

وهكذا يقفهم عرايا مكشوفين، وجها لوجه أمام ما أضمروا من نية، وما ستروا من تقدير، وما ظنوا بالله من السوء. وقد ظنوا أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ومن معه من المؤمنين ذاهبون إلى حتفهم، فلا يرجعون إلى أهليهم بالمدينة.

لقد ظنوا ظنهم، وزين هذا الظن فى قلوبهم، حتى لم يروا غيره، ولم يفكروا فى سواه. وكان هذا هو ظن السوء بالله، الناشئ من أن قلوبهم بور. وهو تعبير عجيب موح. فالأرض البور ميتة جرداء. وكذلك قلوبهم. وكذلك هم بكل كيانهم. بور لاحياة ولاخصب ولا إثمار. وما يكون القلب إذ يخلو من حسن الظن بالله؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله! يكون بورا. ميتا أجرد نهايته إلى البوار والدمار.

وكذلك يظن الناس فى عصرنا هذا بالجماعة المؤمنة .. الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله .. البور .. الخالية قلوبهم من الروح والحياة .. هكذا يظنون دائما بالجماعة المؤمنة، عندما يبدو أن كفة الباطل هى الراجحة، وأن قوى الأرض الظاهرة فى جانب أهل الشرك والضلال ـ كما نرى ونشاهد فى مؤازرة حزب الشيطان لليهود ـ

وأن المؤمنين الصادقين الذين ينتظر منهم تطهير الأرض المغتصبة التى يدنسها هذا العدو اليهودى قلة فى العدد، أو قلة فى العدة، أو قلة فى المكان والجاه والمال ...

وفاتهم أن يتذكروا ما حدث فى أواخر الأربعينات فى فلسطين من هذا القرن العشرين .

ولكن هكذا يظن الأعراب وأشباههم فى كل زمان ومكان أن المؤمنين لا ينقلبون إلى أهليهم أبدا إذا هم واجهوا الباطل المنتفش بقوته الظاهرة .

هكذا يتجنبون المؤمنين الصادقين حبا للسلامة، ويتوقعون فى كل لحظة أن يستأصلوا، وأن تنتهى دعوتهم، فيأخذون هم بالأحوط ويبعدون عن طريقهم المحفوف بالمهالك !

ولكن الله يخيب ظن السوء هذا، ويبدل المواقف والأحوال بمعرفته هو، وبتدبيره هو، وحسب ميزان القوى الحقيقية .. الميزان الذى يمسكه الحق بيده، فيخفض به قوما ويرفع به آخرين، من حيث لا يعلم هؤلاء الظانون بالله ظن السوء فى كل مكان وفى كل حين ! وفى كل جيل وفى كل قبيل !

إن الميزان هو ميزان الإيمان .. ومن ثم يرد الحق أولئك إليه، ويقرر القاعدة العامة للجزاء وفق هذا الميزان، مع التلويح لهم برحمة الله القريبة، والإيحاء إليهم بالمبادرة إلى اغتنام الفرصة، والتمتع بمغفرة الله عز وجل ورحمته:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ⁽١٣⁾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

لقد كانوا يعتذرون بأموالهم وأهليهم. فماذا تنفعهم أموالهم وأهليهم فى هذه السعير المعدة لهم إذا لم يؤمنوا بالله ورسوله ؟

إنهما كفتان، فليختاروا هذه أو تلك على يقين ..

والله يجزى الناس بأعمالهم، ولكن مشيئته مطلقة، لاظل عليها ولاقيد، وهو يقرر هذه الحقيقة هنا لتستقر فى القلوب . غير متعارضة مع ترتيب الجزاء على العمل، فهذا الترتيب اختيار مطلق لهذه المشيئة .

ومغفرة الله ورحمته أقرب . فليغتنمهما من يريد، قبل أن تحق كلمة الله بعذاب من لم يؤمن بالله ورسوله، بالسعير الحاضرة المعدة للكافرين. ثم يلوح ببعض ما قدر الله

للمؤمنين، مخالفا لظن المخالفين، بأسلوب يوحى بأنه قريب :

﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يقول ابن جرير: (١) يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ سيقول ـ يامحمد ـ المخلفون فى أهليهم عن صحبتك إذا سرت معتمرا تريد بيت الله الحرام، إذا انطلقت أنت ومن صحبك فى سفرك ذلك إلى ما أفاء الله عليك وعليهم من الغنيمة« لتأخذوها» وذلك ماكان وعد أهل الحديبية من غنائم خيبر « ذرونا نتبعكم » إلى خيبر ، فنشهد معكم قتال أهلها « يريدون أن يبدلوا كلام الله » يقول: يريدون أن يغيروا وعد الله الذى وعد أهل الحديبية، وذلك أن الله جعل غنائم خيبر لهم ووعدهم ذلك عوضا من أهل غنائم أهل مكة إذا انصرفوا عنهم على صلح، ولم يصيبوا منهم شيئا .

وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ..

ومع هذا فإن النص يظل له إيحاؤه .. فهو يوحى بالفتح القريب .. ولعل الذى جعل المفسرين يخصصون خيبر ، أنها كانت بعد قليل من صلح الحديبية .. وأنها كانت وافرة الغنائم .. وقد كانت حصون خيبر آخر مابقى لليهود فى الجزيرة من مراكز قوية غنية .. وكان قد لجأ إليها بعض بنى النضير وبنى قريظة من قبل .

وتتوارد أقوال المفسرين أن الله عز وجل وعد أصحاب البيعة فى الحديبية، الذين هم خير أهل الأرض ـ كما أسلفنا ـ أن تكون مغانم خيبر لهم لا يشركهم فيها أحد ..

وقد أمر الله نبيه أن يرد المخلفين من الأعراب إذا عرضوا الخروج للغنائم الميسرة القريبة. وقرر أن خروجهم مخالف لأمر الله. وأخبر نبيه ﷺ أنهم سيقولون إذا منعوا من الخروج :

﴿ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾

فتمنعوننا من الخروج، لتحرمونا من الغنيمة. ثم قرر أن قولهم هذا ناشئ عن قلة

(١) تفسير الطبرى : ٢٦ : ٧٩ ــ ٨٠ .

فقههم لحكمة الله وتقديره. فجزاء المتخلفين الطامعين أن يحرموا، وجزاء الطائعين المتجردين أن يعطوا من فضل الله، وأن يكون لهم المغنم حين يقدره الله، جزاء اختصاصهم بالطاعة والإقدام، يوم كانوا لا يتوقعون إلا الشدة فى الجهاد .

ثم أمر الله نبيه أن يخبرهم أنهم سيبتلون بالدعوة إلى جهاد قوم أشداء، يقاتلونهم على الإسلام، فإذا نجحوا فى هذا الابتلاء كان لهم الأجر، وإن هم ظلوا على معصيتهم وتخلفهم فذلك هو الامتحان الأخير :

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

وتختلف الأقوال فيمن هم أولو البأس الشديد .. والمهم أن نلحظ طريقة التربية القرآنية، وطريقة علاج النفوس والقلوب، بالتوجيهات القرآنية ـ والابتلاءات الواقعية .. وهذا كله ظاهر فى كشف نفوسهم لهم وللمؤمنين، وفى توجيههم إلى الحقائق والقيم وقواعد السلوك الإيمانى القويم .

ولما كان المفهوم من ذلك الابتلاء فرض الخروج على الجميع ، فقد بين الله أصحاب الأعذار الحقيقية الذين يحق لهم التخلف عن الجهاد، بلا حرج ولا عقاب :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول ابن جرير : (١) يقول تعالى ذكره : ليس على الأعمى منكم أيها الناس ضيق، ولا على الأعرج ضيق، ولا على المريض ضيق أن يتخلفوا عن الجهاد مع المؤمنين، وشهود الحرب معهم إذا هم لقوا عدوهم، للعلل التى بهم، والأسباب التى تمنعهم من شهودها .

والأمر فى حقيقته هو أمر الطاعة والعصيان . هو حالة نفسية لا أوضاع شكلية فمن يطع الله ورسوله فالجنة جزاؤه. ومن يتول فالعذاب الأليم ينتظره. ولمن شاء يوازن بين مشقات الجهاد وجزائه، وبين راحة القعود وماوراءه .. ثم يختار .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٦ : ٨٤ .

حصون خيبر :

وكما هى عادة اليهود نجدهم فى خيبر قد تحصنوا فى حصون كثيرة، نتحدث عنها إن شاء الله تعالى حين نتحدث عن المواجهة بين الرسول ﷺ وهؤلاء اليهود .. وهذا يدفعنا إلى تصور حقيقة ماعليه هؤلاء اليهود فى خيبر، ومايتطلبه هذا اللقاء من إعداد ...

المنافقون طابور خامس :

ولا ننسى دور المنافقين فى هذا المقام، فقد كانوا منذ بزغت شمس الإسلام ووصل شعاع هذا الدين إلى المدينة ، يشكلون مع اليهود جبهة قوية مناوئة للرسالة والرسول ..

وإن كان دور المنافقين ـ كما أسلفنا ـ يكشف قناع قلوبهم عن الجبن والهلع، والخور والجزع .. فإننا قد عرفنا أن هذه الخصائص مستمدة من خصائص اليهود .. ومن ثم كان التجمع بين هؤلاء وأولئك..

وإذا كان اليهود يمثلون المعارضة الصريحة والمعاداة السافرة .. فإن المنافقين يقفون وراء هؤلاء اليهود كعناصر سرية مساندة، تشجعهم على التحرش بالمسلمين، وتشد من عضدهم، بل وتمد إليهم يد العون بكل ماتستطيع ..

وقد أوجد هذا الطابور الخامس من المنافقين للمسلمين ـ كما عرفنا ـ متاعب كثيرة ومشاكل معقدة بالتواطؤ مع العناصر اليهودية، عندما كان كيانها الدخيل لا يزال قائما فى المدينة (١) .

ولقد عرف التاريخ كيف كان هؤلاء المنافقون يقفون موقف العطف والتأييد لليهود فى أى خلاف ينشب بينهم وبين المسلمين .

وسبق أن عرفنا كيف كان المنافقون يشجعون يهود بنى قينقاع على العصيان والتمرد والتحرش بالمسلمين . وكيف حرضوا يهود بنى النضير على عدم الرضرخ للإنذار بالجلاء.

وعندما اضطر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إلى محاصرة هؤلاء اليهود لتأديبهم على ما ارتكبوا من نكث للعهود، ونزل هؤلاء اليهود على حكم الرسول ﷺ ..لم يخف هذا الطابور الخامس من هؤلاء المنافقين جزعهم الشديد لهذا الحادث .

---

(١) غزوة خيبر : ٩٧ وما بعدها بتصرف .

ولم يكتموا جزعهم وخوفهم ـ كما أسلفنا ـ على مصير اليهود الذين كان الموت ينتظرهم كخونة متمردين ناكثين أُرغموا على الاستسلام بالقوة ..

ولعل أبرز أدوار التعاطف والتلاحم بين هؤلاء وأولئك هو ما حدث فى بنى النضير ـ كما عرفنا ـ وعندما انهارت مقاومة اليهود وقبلوا شرط الجلاء ، ومن ثم نزلوا واستوطنوا خيبر مع غيرهم ،ظلوا على صلة وثيقة بأصدقائهم المنافقين فى المدينة، وهذا واضح لايحتاج إلى مزيد بيان ..

وظل هؤلاء المنافقون يقومون بين صفوف المسلمين بأعمال الطابور الخامس لحساب يهود خيبر، حيث صاروا يتجسسون على المسلمين، فينقلون من أخبار وأسرار المسلمين مايهم يهود خيبر معرفته والإلمام به.

ولا أدل على ذلك من أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لما اعتزم التوجه إلى خيبر، سارع عبد الله بن أبيّ وأشعر يهود خيبر بذلك وطلب منهم أن يستعدوا ويأخذوا حذرهم، وصار يرفع من معنوياتهم بالتوهين فى شأن قوة المسلمين، والإشادة بقوات أولئك اليهود، وذلك فى رسالة مستعجلة بعث بها أحد أعوانه إلى خيبر ، ومما جاء في هذه الرسالة :

« **إن محمدا سائر إليكم، فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، واخرجوا لقتاله، ولاتخافوا منه، إن عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزل لاسلاح معهم إلا القليل** » (١) .

استعداد اليهود للمواجهة :

ولقد كان يهود خيبر منذ فشل خطة غزو الأحزاب التى هى من وحى اليهود وتدبيرهم ـ كما عرفنا ـ يتوقعون أن يقوم المسلمون بتأديبهم عن طريق حرب وقائية شاملة، ولذلك كانوا يستعدون للمواجهة بصفة عامة ، إلا أنهم ما كانوا يعلمون على وجه التحديد متى ستكون تلك المواجهة .

إلا أنهم بعد أن تلقوا عن طريق عملائهم المنافقين فى المدينة تلك التفاصيل عن مدى قوة المسلمين، أخذوا فى التهيؤ والاستعداد للمواجهة، وعلى أوسع نطاق، وبصورة أكبر جدية .

---

(١) السيرة الحلبية : ٢: ١٥٧ .

فحشدوا كافة قواهم العسكرية، واتخذوا كافة الإجراءات التى يرونها ضرورية للمواجهة.

والمتتبع لأسلوب استعداد يهود خيبر للحرب، يرى أن خطتهم الأساسية كانت خطة دفاعية، بالرغم من تفوقهم على المسلمين تفوقا ساحقا فى كل شىء مادى :

فبالإضافة إلى إعطاء حصونهم وقلاعهم المنيعة والحصينة أصلا مزيدا من القوة والتحصين أخلوا كل الحصون والقلاع الأمامية من النساء والذرارى ـ كما سيأتى ـ ونقلوهم إلى حصون خلفية، قرروا بموجب خطة المواجهة التى وضعوها أن تكون هذه الحصون الخلفية خط الدفاع الثانى، إذا ما اجتاح المسلمون خط الدفاع الأول المتمثل فى الحصون والقلاع الأمامية التى أخلوها من كل شىء، ولم يسمحوا لأحد أن يبقى فيها غير حملة السلاح الذين امتلأت بهم ساحات وأبراج هذه الحصون.

كما نقلوا شيئا عظيما من المواد الغذائية إلى خط الدفاع الثانى، ليكون ذلك عونا لهم على مواجهة الحصار الذى كانوا يتوقعونه.

* * *

الفصل الثانى

الطريق إلى خيبر

متى كانت غزوة خيبر؟ ـ والى المدينة ـ مدى قوة المسلمين ـ أدلاء الجيش ـ طريق الجيش إلى خيبر ـ النبى ﷺ وخط الرجعة ـ موقف حرج ـ سر صمود المسلمين ـ الانتصار بالرعب ـ بشائر النصر ـ اختلاف قادة اليهود فى وضع الخطط ـ « الله أكبر ! خربت خيبر » ـ دعاء النبى ﷺ ـ تربية الأمة ـ إعداد ودعاء وثبات ـ الوحدة الإيمانية ـ الكفاح الصبور ـ الربط بين الأسباب والمسببات تحكمه مشيئة الله ـ مقام العبودية ـ انقلاب الميزان ـ مفاجأة اليهود ـ مصير القرى الفاجرة ـ دور « فرويد اليهودى » ـ من مخططات يهود ـ حقائق أساسية ـ حرب من الله ورسوله .

متى كانت غزوة خيبر ؟:

قال ابن حجر: (١) قال ابن إسحاق : خرج النبى ﷺ فى بقية المحرم سنة سبع، فأقام يحاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها فى صفر وروى يونس بن بكير فى المغازى عن ابن إسحاق فى حديث المسور ومروان قالا : انصرف رسول الله ﷺ من الحديبية فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة، فأعطاه الله فيها خيبر، بقوله :

﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ (٢)

يعنى خيبر، فقدم المدينة فى ذى الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر فى المحرم.

وذكر موسى بن عقبة فى المغازى عن ابن شهاب أنه ﷺ أقام بالمدينة عشرين ليلة أو نحوها، ثم خرج إلى خيبر.

وعند ابن عائذ من حديث ابن عباس : أقام بعد الرجوع من الحديبية عشر ليال .

وفى مغازى سليمان التيمى: أقام خمسة عشر يوما.

وحكى ابن التين عن ابن الحصار أنها كانت فى آخر سنة ست، وهذا منقول عن مالك، وبه جزم ابن حزم .

وهذه الأقوال متقاربة، والراجح منها ماذكره ابن إسحاق، ويمكن الجمع بأن من أطلق سنة ست بناه على أن ابتداء السنة من شهر الهجرة الحقيقى، وهو ربيع الأول، وأما ذكره الحاكم عن الواقدى، وكذا ذكره ابن سعد أنها كانت فى جمادى الأول، فالذى رأيته فى مغازى الواقدى أنها كانت فى صفر، وقيل فى ربيع الأول، وأغرب من ذلك ما أخرجه ابن سعد وابن أبى شيبة من حديث أبى سعيد الخدرى قال : خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر لثمان عشرة من رمضان .. الحديث ، وإسناده حسن، إلا أنه خطأ، ولعلها كانت إلى حنين فتصحفت، وتوجيهه بأن غزوة حنين كانت ناشئة عن غزوة الفتح، وغزوة الفتح خرج النبى ﷺ فيها فى رمضان جزما، والله أعلم .

وذكر الشيخ أبو حامد فى التعليقة أنها كانت سنة خمس ، وهو وهم، ولعله انتقال من الخندق إلى خيبر .

---

(١) فتح البارى : ٧ : ٤٦٤ وانظر : زاد المعاد : ٣ : ٣١٦ – ٣١٧ والمواهب : ٢ : ٢١٧ .

(٢) الفتح : ٢٠ .

والي المدينة :

وقبل أن يخرج الرسول الحبيب المحبوب بجيشه من المدينة ـ وكما هى سنته فى مثل هذه الظروف ـ استخلف على المدينة ـ كما قال ابن هشام ـ نُمَيْلة (بنون مصغر) ابن عبد الله الليثى، وعند أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة أنه سبْاعُ بنُ عُرفُطَةَ، وهو أصح (١) .

يروى أحمد بسند قوى أن أبا هريرة قدم المدينة فى رهط من قومه والنبى ﷺ بخيبر، وقد استخلف سباع بن عرفطة على المدينة، قال : فانتهيت إليه وهو يقرأ فى صلاة الصبح فى الركعة الأولى بـ :

﴿ كهيعص ﴾ (٢)

وفى الثانية :

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ (٣)

قال : فقلت لنفسى : ويل لفلان، إذا اكتال اكتال بالوافى، وإذا كال كال بالناقص، قال : فلما صلى زوَّدنا شيئا حتى أتينا خيبر، وقد افتتح النبى ﷺ خيبر، قال: فكلّم رسول الله ﷺ المسلمين فأشركونا فى سهامهم . (٤)

ورواه الحاكم بسند صحيح عن أبى هريرة قال: لما خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر استعمل سباع بن عرفطة الغفارى بالمدينة (٥) .

ويمكن الجمع ـ كما فى المواهب ـ (٦) بأنه استخلف أحدهما أولا، ثم عرض مايقتضى استخلاف الآخر .

مدى قوة المسلمين :

وأما عن مدى قوة المسلمين، فقد كان معه ﷺ ألف وأربعمائة راجل ومائتا فارس ـ كما فى المواهب ـ وهذا مخالف لما عند ابن إسحاق ـ أن عدة خيبر ألف سهم وثمانمائة سهم، برجالهم وخيلهم، والرجال ألف وأربعمائة ، والخيل مائتا فرس، لكل فرس

---

(١) فتح البارى : ٧: ٤٦٥ .
(٢) مريم : ١ .
(٣) المطففين : ١ .
(٤) أحمد: ٢: ٣٤٥ ـ ٣٤٦ .
(٥) المستدرك : ٣: ٣٦: ٣٧ .
(٦) المواهب: ٢: ٢١٧ .

سهمان، ولفارسه سهم [1] .

أدلاء الجيش :

وقد استعان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بخبيرين من قبيلة أشجع التى يرتاد رجالها دائما منطقة خيبر، ليتعرف معالم الطريق . وهما حسيل ـ بالتصغير ويقال بالتكبير ـ ابن خارجة ـ كما يقول الحافظ ابن حجر ـ [2] وقيل ابن نويرة الأشجعى . وحكى ابن مندة أنه يقال فيه حسين ـ بالنون أيضا ـ والذى يظهر أنه أخوه . [3] وروى الطبرانى وغيره من طريق إبراهيم بن حويصة الحارثى عن خاله معن بن حَوِيّة ـ بفتح المهملة وكسر الواو وتشديد التحتانية ـ عن حسيل بن خارجة الأشجعى قال : قدمت المدينة فى جلب أبيعه، فأتى بى رسول الله ﷺ فقال:

«ياحسيل، هل لك أن أعطيك عشرين صاع تمر، على أن تدل أصحابى على طريق خيبر».

ففعلت ، قال: فأعطانى، فذكر القصة، قال: فأسلمت .

وروى ابن مندة من هذه الطريق عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ خيبر، فضرب للفرس سهمين، ولصاحبه سهما .

وروى عمر بن شبة من هذه الطريق عنه، قال: بعث يهود فدك إلى رسول الله ﷺ حين افتتح خيبر : أعطنا الأمان، وهى لك، فبعث إليهم حويصة فقبضها، فكانت له خاصة .

أما الثانى فهو عبد الله بن نعيم الأشجعى .. ذكره أبو القاسم البغوى في الصحابة، وقال: كان دليل النبىﷺ إلى خيبر، ولم يذكر سنده فى ذلك، وكذا ذكره أبو جعفر الطبرى، واستدركه ابن فتحون [4] .

طريق الجيش إلى خيبر :

وتقع خيبر ـ كما أسلفنا ـ شمال شرقى المدينة، وقد سلك الرسول الحبيب المحبوب

---

(١) المرجع السابق .　　(٢) الإصابة : ٢: ١٤ (١٧١٦) .
(٣) انظر : المرجع السابق : ٦١ (١٩٧٣) .
(٤) المرجع السابق : ٤: ١٣٦ (٤٩٨٧) .

ﷺ طريقا خاصا حين خرج من المدينة إلى خيبر، حيث اتجه إلى عِصر ـ كما قال ابن إسحاق ـ (١) وبنى له فيها مسجدا، ثم على الصّهباء، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له : الرجيع، فنزل بينهم وبين غطفان، ليحول بينهم وبين أن يُمِدُّوا أهل خيبر، كانوا لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ، فبلغني أن غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا منقلةً سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسّاً، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أموالهم وأهليهم، وخلّوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

ويروى البخارى عن بشير بن يسار أن سُوَيْد بن النعمان أخبره أنه خرج مع النبى ﷺ عام خيبر، حتى إذا كنا بالصّهباء ـ وهى من أدنى خيبر ـ صلى العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يُؤتَ إلا بالسّويق، فأمر به فثرِّى، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فَمَضْمَضَ ومضْمَضْنا، ثم صلّى ولم يتوضأ . (٢)

النبي ﷺ وخط الرجعة :

وبالرغم من مرور عشرين عامًا على بزوغ شمس الإسلام، وبالرغم من مرور سبع سنوات على الرسالة والرسول فى المدينة، وبالرغم من ازدياد نفوذ الإسلام وتكاثر أهله فى هذه المنطقة، فإن جميع القبائل العربية الواقعة شرقى وشمالى المدينة ظلت على عدائها للإسلام ـ كما يقول الأستاذ باشميل ـ (٣) وخاصة القبائل النجدية القوية الحليفة لليهود والمجاورة لخيبر .

وعلى هذا فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عندما فكّر فى الزحف على خيبر كان يعلم أنه سيمر بجيشه فى أرض تقع تحت سلطان أعداء الإسلام.. وفى هذا دون ماشك خطر لا يمكن أن يغيب عن بال الرسول القائد .

ولاشك أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ـ كقائد عسكرى ـ أدخل فى حسابه وجود هذا الخطر، فاتخذ من الاحتياطات ـ فوق ما أسلفنا ـ ما يدفع عنه وعن جيشه هذا الخطر الماثل فى انتشار القبائل الوثنية عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وأمامه ..

وأهم ما يمكن أن يخشاه قائد محارب يكون فى الوضع الذى كان عليه النبى ﷺ

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير : ٣: ٣٤٥ . (٢) البخارى : ٦٤ ـ المغازى :(٤١٩٥) .

(٣) غزوة خيبر : ١١٧ ومابعدها بتصرف .

وهو فى طريقه إلى خيبر، هو أن يقطع على الأعداء خط الرجعة عندما يكون يحارب فى خيبر.

لأن القبائل التى ستكون أو بإمكانها أن تكون خلفه، عندما يتوغل بجيشه نحو خيبر، هى ــ كما قلنا ــ قبائل وثنية معادية موتورة.

موقف حرج:

وتفيدنا الخطة التى اتفق عليها اليهود والمرتزقة من غطفان ضد المسلمين الذين لم يزد عددهم ــ كما أسلفنا ــ عن ألف وأربعمائة راجل ومائتى فارس، يقابلهم للأعداء أعداد ضخمة ــ كما سيأتى ــ بأن المسلمين فى موقف حرج.

تتمثل هذه الخطة فيما يأتى:

أولا: أن تبعث قبائل غطفان بمجموعة من رجالها المسلمين إلى اليهود، ليكونوا معهم فى حصونهم، وقد فعلوا ذلك، فأرسلوا عدة كتائب بقيادة عيينة بن حصن، وطليحة بن خويلد، وحذيفة بن بدر الفزارى. (١)

ثانيا: أن يقوم أربعة آلاف مقاتل من غطفان بحركة التفاف على المسلمين، لضربهم من الخلف، عندما يكونون قريبين من خيبر.

وقد تعهد زعماء خيبر لغطفان بأن يمنحوهم نصف ثمار خيبر مقابل هذه المساندة العسكرية ضد المسلمين.

ولقد نفذ الغطافيون البند الأول من الاتفاقية قبل أن يتحرك المسلمون بجيشهم من المدينة، إذ وصلت إلى خيبر عدة كتائب من جيوش غطفان وبنى أسد بقيادة طليحة بن خويلد الأسدى، وعيينة بن حصن، وحذيفة بن بدر الفزاريين، فرابطت هذه القوات مع اليهود داخل قلاعهم وحصونهم. (٢)

وأما البند الثانى من الاتفاقية فقد شرع الوثنيون فى تنفيذه، إذ لم يكد النبى ﷺ يصل بقواته إلى ضواحى خيبر، حتى تحركت من خلفهم أربعة آلاف مقاتل من غطفان، بقصد الالتفاف على المسلمين، لقطع الرجعة عليهم وجعلهم بين نارين. (٣)

---

(١) انظر: السيرة الحلبية: ٢: ١٧٥.
(٢) انظر مختصر مغازى الواقدى: ٣١٢.

(٣) انظر: ابن هشام: ٢: ٣٣ والسيرة الحلبية: ٢: ١٧٥.

يروى ابن إسحاق أن غطفان لما علموا أن النبى ﷺ قد تحرك نحو خيبر، خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، وتحركت قواتهم لضرب الجيش النبوى من الخلف، واستمرت فى تحركها يوما وليلة . (١)

وحين يتصور الخبير بشئون الحرب وقوع جيش المسلمين بين هذه الجموع، يدرك مدى الخطورة التى كانت عليها تلك القوة المسلمة القليلة العدد، التى هى فى حالة أشبه ماتكون بالتطويق .

سر صمود المسلمين :

ومع كل هذا، فقد سار المسلمون فى طريقهم نحو المعركة الفاصلة، وكلهم ثقة واطمئنان، فلم يكن لتلك القوات الضاربة من الأعداء أى أثرضار على معنوياتهم الحربية، لأنهم بعد وعد الله الذى وعدهم ـ كما أسلفنا ـ لم يزنوا الأمور ويقيسوها بموازين ومقاييس مادية صرفة من حيث العدد والعدة، ولو فعلوا ذلك لأدخل فى روعهم، ولم يعودوا قادرين على المواجهة بحال من الأحوال .

ولكن الثقة بالله، والاطمئنان إلى وعده بالنصر، وزخم العقيدة الصافية الذى يدفعهم إلى الأمام .. كل أولئك كان قاعدتهم التى منها ينطلقون، وعلى ضوئها يتحركون .

ولهذا فقد كانت نفس كل واحد منهم مشحونة بطاقات روحية هائلة تجعله فى قرارة نفسه موقنا بأنه قادر أن يواجه أعدادا هائلة من هؤلاء اليهود ويتغلب عليهم .

وهذا هو سر صمودهم وثباتهم وعدم اكتراثهم بتلك القوات الضاربة من الأعراب واليهود، التى أجمعت على حربهم، وهم بعيدون عن أرضهم .

الانتصار بالرعب :

وعلى كل حال، وبالرغم من أن كل شىء ـ حسب المقاييس المادية المجردة ـ هو ضد المسلمين، وإلى جانب اليهود وحلفائهم فى هذه الحروب، لإنهاء الوجود اليهودى الزنيم، فقد مضى المسلمون لسبيلهم، وساروا نحو خيبر على تعبئتهم، وفق الخطة التى رسموها لخوض المعركة، غير مبالين بتلك القوات الضاربة من اليهود والأعراب ..

يروى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) انظر مختصر مغازى الواقدى : ٣١٢ .

« أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل، وأحلّت لي الغنائم، وكان النبى يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة » (١) .

بشائر النصر :

والجيش الإسلامى على يقين من ذلك، وعلى يقين أيضا من وعد الله لهم بفتح خيبر ــ كما أسلفنا ــ ومن ثم رأينا بشائر النصر تلمع فى الأفق، قبل أن يحدث اشتباك مسلح بين المسلمين وأعدائهم، وبدأت الصفوة من أصحاب الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ترى وعد الله لها بالنصر يظهر جليا فى صور شتى ، وهو يكاد يتجسد، فقويت نفوسهم ــ وهى المؤمنة القوية أصلا ــ وازدادوا عزما على عزم، وصار لديهم اليقين الذى لايخالطه أى شك أن قوات أعدائهم المحيطة بهم من كل جانب، وهى كثيرة العدد قوية العدّة، لا تلبث أن يهزمها الحق وينزل الرعب فى قلوبها فتنداح أمامهم ساعة الروع كما ينداح الورق اليابس أمام العاصفة فى فصل الخريف .

وهذا هو الذى حدث بالفعل للقوات الرئيسة من قبائل غطفان، وهى القوات التى بلغت أربعة آلاف مقاتل، وخرجت من ديارهم، تسير خلف المسلمين وهم سائرون إلى خيبر وتتعقبهم، قاطعة عليهم خط الرجعة، ومقررة الهجوم عليهم من الخلف لإرباكهم، وجعلهم بينها وبين حلفائها من يهود خيبر الهدف الأول لتحركات الجيش الإسلامى .

فقد ذكر المؤرخون أن هذه القوات النجدية الوثنية الضاربة، بينما كانت تتحرك فى إثر الرسول ﷺ وأصحابه، لتضربهم من الخلف، لحساب يهود خيبر حلفائها، إذا بقادة هذه القوات يسمعون صريخ من خلفهم، يصيح فيهم منذرا إياهم بأن كتائب المسلمين قد خلفوهم وأغاروا على ديارهم ومضاربهم، وأنهم على وشك استياق أموالهم وسبى نسائهم وذراريهم .

قال ابن إسحاق: بلغنى أن غطفان لمّا سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعوا له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة ــ أى مرحلة ــ سمعوا خلفهم

---

(١) البخارى : ٨ ــ الصلاة (٤٣٨) واللفظ له، ومسلم : ٥ ــ المساجد ٣ (٥٢١) وانظر : النسائى : ١: ٢١٠ ــ ٢١١ .

في أموالهم، ظنوا أن القوم ــ أى المسلمين ــ قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا فى أهليهم وأموالهم، وخلّو بين رسول الله ﷺ وبين خيبر . (١)

كما سمع الذين مع اليهود فى حصونهم صوت نفس الصائح، فانسحبوا وتركوا اليهود وحدهم .

وقال الواقدى : إن غطفان سمعوا صائحا يصيح، لايدرون من السماء أومن الأرض :

يامعشر غطفان : أهلكم أهلكم، الغوث الغوث، بحيفاء ــ صيح ثلاث مرات ــ لا تربة ولا مال، قال: فخرجت غطفان على الصعب والذلول، وكان أمرا صنعه الله عز وجل لنبيه. فلما أصبحوا أخبر كنانة بن أبِي الحُقَيق ــ سيد خيبر ــ وهو فى الكتيبة (٢) بانصرافهم ، فسقط فى يديه، وذل وأيقن بالهلكة وقال: كنا من هؤلاء الأعراب فى باطل، إنا سرنا فيهم فوعدونا النصر وغرّونا، ولعمرى لولا ما وعدونا من نصرهم ما نابذنا محمدا بالحرب، ولم نحفظ كلام سلام بن أبى الحقيق إذ قال: لاتستنصروا بهؤلاء الأعراب ــ يعنى غطفان ــ أبدا، فإنا قد بلوناهم .. لنصر بنى قريظة، ثم غرُّوهم. فلم نر عندهم وفاءً لنا، وقد سار فيهم حيىّ ابن أخطب، وجعلوا يطلبون الصلح من محمد، ثم زحف محمد إلى بنى قريظة، وانكشفت غطفان راجعة إلى أهلها. (٣)

ويستمر الواقدى فى سرد قصة انسحاب غطفان مرعوبين فيقول:

فلما انتهى الغطفانيون إلى أهلهم بحيفاء وجدوا أهلهم على حالهم فقالوا: هل راعكم شىء ؟ قالوا: لا والله، فقالوا: لقد ظننا أنكم قد غنمتم، فما نرى معكم غنيمة ولاخيرا ! فقال : عيينة بن حصن لأصحابه: هذا والله من مكائد محمد وأصحابه، خدعنا والله ! فقال له الحارث بن عوف المرّى : بأى شىء ؟ قال عيينة : إنا فى حصْن النطاة بعد هدأة، إذ سمعنا صائحا يصيح، لاندرى من السماء أو من الأرض : أهليكم أهليكم بحيفاء ــ صيح ثلاثة ــ فلا تربة ولامال، فقال الحارث ابن عوف : ياعيينة والله لقد غبِرت ــ أى بقيت ــ إن انتفعت، والله إن الذى سمعت لمن السماء، والله ليظهرن محمد على من ناوأه حتى لو ناوأته الجبال لأدرك منها ما أراد. فأقام عيينة أياما فى أهله، ثم دعا أصحابه

---

(١) ابن هشام : ٢: ٣٣٠ ، وانظر عيون الأثر : ٢: ١٣١ - ١٣٢ .

(٢) الكتيبة : منطقة فى خيبر بها حصون لهم.

(٣) غزوة خيبر : ١٢٨ وانظر: الواقدى : ٢: ٦٥١ .

للخروج إلى نصر اليهود، فجاءه الحارث بن عوف فقال: ياعيينة أطعنى وأقم فى منزلك، ودع نصر اليهود، مع أنى لا أراك ترجع إلى خيبر إلا وقد فتحها محمد، ولا آمن عليك .. فأبى عيينة أن يقبل قوله وقال: لا أسْلم حلفائى لشى (١) . وقال الحارث أيضا : والله ـ ياعيينة ـ ليظهرن محمد على مابين المشرق والمغرب .. يهود يخبروننا بذلك. أشهد أنى لسمعت أبا رافع سلاّم بن أبى الحُقيق يقول:

إنا لنحسد محمدا على النبوة، حيث خرجت من بنى هارون، وهو ـ أى محمد ـ نبى مرسل .. ويهود لاتطاوعنى على هذا .. ولنا منه ذبحان .. واحد بيثرب ـ وقد كان ـ وواحد بخيبر .. فقلت له : ياسلاّم، يملك الأرض جميعا ؟ قال : نعم والتوراة التى أنزلت على موسى .. وما أحب أن يعلم يهود بقولى فيه(٢) . ومع كل هذا تحرك عيينة بمن أطاعه من غطفان، محاولا إمداد يهود خيبر ومساندتهم ضد المسلمين، إلا أنه لم يصل خيبر حتى وجد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد قضى على اليهود عسكريا، كما سيأتى إن شاء الله تعالى ..

تلك بشائر النصر فى الطريق إلى خيبر

اختلاف قادة اليهود فى وضع الخطط :

وكان قادة اليهود عندما ما أحسوا بمسير الرسول الحبيب المحبوب ﷺ إليهم بجيشه عقدوا مجلسا عسكريا تبادلوا فيه الرأى حول أفضل الخطط التى يجب اتباعها لمواجهة الجيش الإسلامى(٣) .

وأثناء بحث هذا الموضوع انقسم قادة اليهود إلى فئات ثلاث :

فئة ترى أن يتحصن اليهود فى الحصون والقلاع، التى سنتحدث عنها فيما بعد، ويقاتلوا المسلمين من وراء الأسوار، بحجة أن ذلك يُضجر المسلمين، فيجبّرهم فى النهاية على الانسحاب، دون أن يقدروا على اقتحام الحصون، لمناعتها وكثرة المقاتلين فيها .

وفئة ترى أن على يهود خيبر أن يعسكروا خارج الحصون والقلاع، ويواجهوا المسلمين فى العراء، فيخوضوا معهم معركة فاصلة خاطفة، بدلا من التحصن داخل الحصون والقلاع .

---

(١) انظر : الواقدى : ٢: ٦٥٢ . (٢) المرجع السابق : ١٠٩ .

(٣) المرجع السابق : ٢ : ١٠٢ بتصرف .

وكان على رأس الفريق الثانى أحد قادتهم الكبار، وهو الحارث الملقّب بأبى زينب، وهو أخو مرحب، وكلاهما من قبيلة حمير.

فقد قال الحارث شارحا وجهة نظره ومحبذا البروز للمسلمين :

إنى قد رأيت من سار إلى محمد من الحصون، لم يكن لهم بقاء بعد أن حاصرهم حتى نزلوا على حكمه، ومنهم من سُبى، ومنهم من قتل صبرا .. ثم استرسل فى شرح فوائد فكرة الاصطدام بالمسلمين خارج القلاع، والحصون فى معركة سريعة حاسمة، محاولا إقناع زملائه من القادة بقبول فكرته الجريئة.

غير أن اقتراحه لم يلق أى تجاوب من القادة اليهود، حيث رفضوه وأيدوا فكرة التحصن داخل القلاع ومواجهة المسلمين من وراء أسوارها قائلين :

ياأبا زينب، إن حصوننا هذه ليست مثل تلك، هذه حصون منيعة فى ذُرى الجبال، ثم خالفوه. (١)

أما الفئة الثالثة فقد ذهبت فى الجرأة إلى أبعد مما ذهب إليه الحارث أبو زينب، حيث اقترحت القيام بغزو المسلمين فى المدينة، وضربهم فيها قبل أن يتحركوا بقواتهم نحو خيبر.

وكان على رأس هذه الفئة سلاّم بن مشكم النضرى، القائد العام للقوات اليهودية فى خيبر، والذى يقال له فى ذلك العصر: صاحب حربهم. (٢)

فقد ذكر المؤرخون أن سلاّم بن مشكم قال فى اجتماع لهم ـ مُحَمّلاً حيّي بن أخطب ما أصاب يهود يثرب، وخاصة ماحل ببنى قريظة ـ : هذا كله عمل حييّ بن أخطب .. خالفنا فى الرأى، فأخرجنا من أموالنا وشرفنا، وقتل إخواننا ـ يعنى بنى قريظة الذين غرَّر بهم حيّي بن أخطب فخانوا عهد المسلمين ـ وأشد من القتل سبى الذرية، لاقامت يهود بالحجاز أبدا، ليس لليهود عزم ولا رأى. فقالوا: فما الرأى ياأبا عمرو ؟ـ وهذه كنيته ـ قال : وما تصنعون برأى لاتأخذون منه حرفا؟

« الله أكبر ! خربت خيبر » :

وفى هذا الجو من الإعداد والصمود وبشائر النصر على اليهود .. نذكر مارواه

---

(١) المرجع السابق : ٣ : ١٠٣، وانظر الواقدى : ٣: ٦٣٧ .

(٢) انظر: المرجع السابق.

الشيخان وغيرهما عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه قال:

خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلا، فقال رجل من القوم لعامر : ياعامر، ألا تسمعنا من هُنَيْهاتك ؟ وكان عامرٌ رجلا شاعراً !. فنزل يَحْدُو بالقوم يقول:

اللهم ! لولا أنت ما اهتدينا ولاتصدّقنا ولاصلّينا
فاغفر فداء لك ما اقتفَيْنا وثبِّت الأقدام إن لاقَيْنا
وألْقِيَنْ سكينة علينا إنا إذا صِيحَ بِنا أبيْنا
وبالصِّياح عوّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ :

« مَن هذا السائق ؟»

قالوا: عامرُ بن الأكوع . قال:

« يرحَمُه الله»

قال رجلٌ من القوم: وجبَتْ يانبىّ الله! لولا أمتَعْتَنا به .. فأتيْنا خيبر فحاصرناهم، حتى أصابتنا مخمصة شديدة . ثم إن الله تعالى فتَحها عليهم . فلما أمسى الناس مساء اليوم الذى فُتحت عليهم أوقدُوا نيراناً كثيرة، فقال النبى ﷺ :

« ماهذه النيران ؟ على أىّ شىء توُقِدون ؟»

قالوا: على لحم ، قال:

« على أىّ لحم ؟»

قالوا: لحمٌ حُمُر الإنسيّة. قال النبى ﷺ:

« أهْريقو ها واكسروها »

فقال رجل يارسول الله! أو نُهريقها ونغسلها ؟ فقال:

« أوْ ذاك »

فلما تصَافّ القوم كان سيفُ عامرٍ قَصيرًا، فتناول به ساق يهودىّ

ليضربه. ويرجعُ ذُباب سيفه فأصاب عيْن رُكبة عامر فمات منه . قال : فلما قَفَلوا قال سلمة : رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدى . قال:

« مالَك؟»

قلتُ له: فِداك أبي وأمي، زعَموا عامرًا حَبِطَ عمله. قال النبي ﷺ:

« إن له لأجْرَيْن »

وجمع بين إصبعيه :

« إنه لجاهد مجاهد، قَلَّ عربيّ مشى بها مثله » (١).

وفي رواية ـ أيضا ـ عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فصلّينا عندها صلاة الغداة بغلَس ، فركِب نبى الله ﷺ، وركب أبو طلحة، وأنا رديف أبى طلحة ، فأجرى نبى الله ﷺ فى زُقاق خيبر، وإن ركبَتى لتمَسُّ فخِذ نبى الله ﷺ . ثم حسرَ الإزار عن فخذه، حتى إنى أنظر إلى بياض فخذ نبى الله ﷺ . فلما دخل القرية قال:

« الله أكبر ! خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين »

قالها ثلاثا. قال: وخرج القوم إلى أعمالهم، فقالوا محمد ! ـ قال عبد العزيز : وقال بعض أصحابنا ـ والخميس. يعنى الجيش . قال: وأصبْناها عنـوة .. الحديث (٢) .

قال ابن حجرَ : وزيادة التكبير فى معظم الطرق عن أنس وعن حميد، (٣) قيل : مناسبة ذلك القول أنهم استقبلوا الناس بمساحيهم ومكاتلهم (٤)، وهى من آلات الهدم (٥) .

وسمي الجيش خميسا؛ لأنه خمسة أقسام: مقدمة، وساقة، وقلب وجناحان. وقيل : من تخميس الغنيمة، وتعقبه الأزهرى بأن التخميس إنما ثبت بالشرع، وقد كان أهل

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤١٩٦) ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ١٢٣ (١٨٠٢) وأبو داود (٢٥٣٨) والنسائى :٦: ٣٠ ـ ٣١ .

(٢) البخارى : ٨ ـ الصلاة (٣٧١) ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ١٢٠ (١٣٦٥) والنسائى : ٦: ١٣١ ـ ١٣٤ وانظر: الموطأ: ٢١ ـ الجهاد (٤٨) والترمذى (١٥٥٠) وأحمد: ٣: ١٠٢، ١٦٤، ٢٠٦، ٢٤٦، ٢٦٣.

(٣) فتح البارى : ٧: ٤٦٨ .

(٤) بمساحيهم: بمهملتين، جمع مسحاة، وهى من آلات الحرث . ومكاتلهم : جمع مكتل، وهو القفة الكبيرة التى يحول فيها التراب وغيره. المرجع السابق : وانظر الروض الأنف : ٤ : ٥٨ .

(٥) المرجع السابق : ١: ٤٨١ .

الجاهلية يسمُّون الجيش خميسا، فبان أن القول الأول أولى (١).

قال السهيلى : فيه التفاؤل وقوة لمن استجاز الرجز .. وذلك أنه لما رأى المساحى والمكاتل، وهى من آلة الهدم والحفر، مع أن لفظ المسحاة من سحوت الأرض ، إذ قشرتها، فدل ذلك على خراب البلدة التى أشرف عليها (٢) .

قال ابن حجر : ويحتمل أن يكون قال : « خربت خيبر » بطريق الوحى . ويؤيده قوله بعد ذلك : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » (٣) .

وهكذا كان التفاؤل مصاحبا للبشائر ..

دعاء النبى ﷺ :

ومع تلك البشائر وهذا التفاؤل هذا الدعاء فيما رواه الحاكم بسند صحيح من حديث صهيب رضى الله عنه أن النبى ﷺ لم يرَ قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها :

« **اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذَرَيْن، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر ما فيها** »(٤).

ويروى الطبرانى بسند حسن عن أبى لبابة بن عبد المنذر أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد دخول قرية لم يدخلها حتى يقول :

« **اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين السبع وما أقلت، ورب الرياح وما أذرت، ورب الشياطين وما أضلت، إنى أسألك خيرها وخير ما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها** » (٥).

وهكذا يكون الدعاء مع الإعداد والبشائر والتفاؤل .

وهذا درس يجب أن نعيه ، لأن الذى تتحلب إليه سوانح الخواطر فى إدراكنا

---

(١) المرجع السابق ، وانظر : المواهب : ٢: ٢٢٢.
(٢) الروض الأنف : ٢: ٥٨ .
(٣) فتح البارى : ٧: ٤٦٨.
(٤) المستدرك : ١: ٤٤٦، ٢: ١٠٠ ــ ١٠١ وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وهو كما قالا.
(٥) مجمع الزوائد : ١٠ : ١٣٤ .

البشرى، فيما يمكن الوصول إليه من المعالم التربوية فى هذا الموقف : (١) أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ كان وهو يتضرع متذللا إلى الحق تبارك وتعالى فى خشوع وخضوع شهد فيه كبرياء جلال الحق ـ كما أسلفنا من وعد الله المسلمين بفتح خيبر وماتلاه من معالم ـ وقد تمثل له أصحابه فى قلّة عددهم وعدّتهم، وفى أيديهم الحق والهدي والنور والخير، يدعون إليه فجّار اليهود وغوغاءهم، وقد جمعوا لهم ما جمعوا من السلاح والمؤن بما يفوق ما كان عليه المسلمون أضعافا مضاعفة، وهذا وضع بمقتضى الطبع البشرى ووسائل الحياة المألوفة بين الناس لا يمكن أن يتحقق معه نصر لهذه القلة المؤمنة ـ كما أسلفنا ـ ومن ثم كان هذا الدعاء ، وكان موقف الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى مقام العبودية المطلقة الذى تذوب فيه خصائص البشرية، حتى لايبقى لمظاهر العبودية البشرية شيء تردّ إليه أسباب ما يرجى أن يكون من فيض الرحمة الغامرة .

وهنا لايبقي للعبد شهود لتعبداته مهما كانت ضروبها وأنواعها، وإنما يبقى له مظهر الاستسلام الضارع لخالقه، وكأنه مسلوب الرغائب والإرادات، والمحاب والمكاره، بل يصير نقطة فى خط القضاء الإلهى تنساب فيها إرادة الله ومشيئته فى طريق الأقدار، نافذه مبرمة .

فالرحمة والنقمة والرضا والغضب تجليات متمازجة في وحدة من غيث الحق، لاتناقض بينها هناك، وهذه الوحدة المتمازجة في نظر العقل هى التى يراها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى هذا الدعاء الذى ذكرنا، في مقام العبودية المطلقة ..

كذلك كان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فى مناجاته الضارعة بين يدى ربه، مع وجود البشائر والتفاؤل، واليقين بوعد الله عز وجل ـ كما أسلفنا ـ فى مشهد جلال الحق، والتسليم المطلق، والعبودية المطلقة التى لاتشهد من الكون إلا أنها ذرة من ذرات وجوده، تقلبها رياح الأقدار بما جرى ويجرى به الغيب المحجب عن ذوى الشهود النظرى من خاصة المقربين، ولعل موقف الشهود النبوى هو المعبّر عنه تلميحا بعين اليقين، ويقابله موقف شهود الخاصة المعبر عنه بعلم اليقين، وبين مقامى عين اليقين، وعلم اليقين ما بين مقامى علم العالمين، وشهود المشاهدين، والله تعالى محيط بما كان وما يكون .

---

(١) محمد رسول الله : ٣: ٣٥٤ ومابعدها بتصرف .

تربية الأمة:

وهذا نوع من التربية للأمة يقوم على العلم والعمل، العلم بحقائق الرسالة وأحكامها وشرائعها، والعمل الذى يجعل من هذه الرسالة منهجا عمليا تطبيقيا، تعيش الأمة فى ظله حياتها كلها، ممثلة فى جميع شئونها العقائدية والتعبدية والسياسية والعسكرية والاجتماعية.

وبهذه التربية تضمن الأمة ألا يقع زمام قيادها فى يد جهول ، يتلعب بمقدراتها فى حاضرها ومستقبلها، ليفسد عليها حياتها، ويرديها فى مهاوى المهالك، كما حدث فى المواجهة العسكرية حديثا مع اليهود.

وبهذه التربية ـ أيضا ـ تستطيع الأمة الإسلامية أن تذود بكل ما تملك من قوة فكرية ومادية عن حمى قيادها كل عليم اللسان، مظلم الجنان، منافق السلوك، لايعنيه من أمرها فى حاضرها ومستقبلها إلا كلمات مزخرفات، تقال وتنشر هنا وهناك، خاوية من حقائق منهج الرسالة، بعيدة عن التطبيق العملى الذى أخذ به الرسول الحبيب المحبوب ﷺ مجتمعه المسلم فى قيادته له، وتربيته تربية تعدّه لقيادة المعركة بيننا وبين اليهود والنصر عليهم، وتطهير الأرض من رجسهم، وتعدّه كذلك لقيادة الإنسانية قيادة ترفعها عن الإخلاد إلى الأرض، صاعدة بها إلى آفاق التحرر العقدى والتعبدى والاجتماعى والسياسى، والعسكرى ، أداء لحق اختيارها خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أمرا ونهيا لايقفان عند معايير منحرفة عن معالم المنهج الربانى الذى لايفرق فى إقامة العدل بين الأشخاص والأمم ..

ومن ثم تصلح المناهج التعليمة ، وتصبح منارات على الطريق، ويصبح العلماء في مكان القيادة والريادة والجهاد .. لا أن يكونوا في المؤخرة وسبق أن ذكرنا أن أحبار اليهود كانوا فى مقدمة جيشهم حين اشتعلت نار الحرب بيننا وبينهم فيما عرف باسم نكسة «٦٧» ! وحينئذ تكون للحرب قيادتها وتكون لها قداستها، وينصرنا الله على اليهود.

والله تعالى لم يُقم بناء هذه الأمة على المعجزات وكفى، ليجعلها كسيحة التفكير، متواكلة الحركات، متربصة للحظوظ والمصادفات، وإنما أقام بناءها على أساس وحدة إيمانية، متماسكة العرى، وثيقة الروابط، ووحدة مؤاخاة تكافلية ـ كما أسلفنا ـ تجعل من الفرد لبنة فى بناء شامخ، تحمل نصيبها في تماسك البناء.

والتكافل عمل متواصل موصول بالحياة الاجتماعية المتحركة فى إطار المنهج الإلهى الذى جعلته الرسالة أساسها في رسوخ الإيمان .

وللمعجزات مناسبات خاصة تقتضيها فتقع عندها، فتكون فى وقتها لونا من ألوان العمل التربوى لإنقاذ الموقف إذا أحاطت به الأزمات، واكتنفته الشدائد، وهى مع الإنقاذ تبشير يحرك العزائم، حتى تمضى قدما إلى الهدف ، شاكرة متحرزة.

والمعجزات لا تأتي فى منهج الرسالة الخاتمة إلا بعد إعداد تربوى يدخلها فى نطاق العمل المحفوف بالتأييد الإلهى المسدّد بالتوفيق .

إعداد ودعاء وثبات :

وسبق أن عرفنا كيف كان الإعداد لمواجهة اليهود فى خيبر .. وكيف كان وعد الله لهم بالنصر .. وكيف كان الدعاء .. ومع كل هذا وذاك، كان الثبات ..

وهذا يعلمنا أن حركة المسلم فى هذه الحياة لاتستقيم وتصل إلى هدفها إلا حين يرفع بصره وفؤاده، وعقله وسمعه، وحسه وشعوره، إلى الحق، يتلقى العون والنصر، وصدق الحركة وانتصار قيمها .

ويعلمنا كذلك أن هذا التوجه يجب أن يقترن بثبات الخطى على الأرض، وبتحمل مسئولية السمع والبصر والفؤاد بأمانة كاملة، وبصياغة الحرية الإنسانية بما ينسجم فى المدى القريب والبعيد مع قدر الله تعالى ونواميسه وسننه .

وبدون هذا التلاقى بين قدر الله وحركة الإنسان .. بين نور السماء وشفافيتها، وبين كثافة الأرض ووعورة الطريق .. بدون هذا الحوار الدائم الفعال، بين انطلاق الروح وشد الجسد .. بدون هذا التواصل الدائم، بين الحضور والغياب .. بدون هذا وذاك لن تكون هناك حركة جادة، ولن تكون هناك ثمرة مرجوة، ولن يكون هناك نصر نرجوه..

وتتجمع هذه الأدوار كلها فى دقة وإحكام ، لتعطينا تنظيما عسكريا لامثيل له فى غير المنهج الإسلامى ولاشبيه بحال من الأحوال .. وحينئذ ينصرنا الله على اليهود .

الوحدة الإيمانية :

والجيش الإسلامى الذى نصره الله على يهود خيبر ـ كما سيأتي ـ كان يمثل الوحدة

الإيمانية التى تجمع بين أفراده :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

وكلمة « إنما » تعنى فى التطبيق العلمى لمنهج الرسالة بمعناها الاستعمالى فى اللغة العربية عنصرا أساسيا فى بناء الجملة المقررة للوحدة الإيمانية، (٢) والإيمان فى كلمة «المؤمنون» لايعنى قط الخلافات المتفلسفة التى أفنت أعمار الفلاسفة والمتكلمين دون طائل، وإنما يعنى الإيمان كما جاء فى نص منهج الرسالة :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (٣)

إن الإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله . (٤) التصديق الذى لايرد عليه شك ولا ارتياب. التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذى لايتزعزع ولايضطرب، ولاتهجس فيه الهواجس، ولايتلجلج فيه القلب والشعور . والذى ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس فى سبيل الله. فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه ، لابد مندفع لتحقيق حقيقته فى خارج القلب. فى واقع الحياة . فى دنيا الناس .

يريد أن يوحد بين ما يستشعره فى باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به فى ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة ولايطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية فى حسه، والصورة الواقعية من حوله؛ لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه فى كل لحظة .

ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس، فهذا انطلاق ذاتى فى نفس المؤمن. يريد أن يحقق الصورة الوضيئة المضيئة فى قلبه، ليراها ممثلة فى واقع الحياة والناس.

والخصومة بين المؤمن وبين الحياة الجاهلية من حوله خصومة ذاتية ناشئة من عدم استطاعته حياة مزدوجة بين تصوره الإيمانى وواقعه العملى . وعدم استطاعته كذلك التنازل عن تصوره الإيمانى الكامل الجميل المستقيم فى سبيل واقعه العملى الناقص الشائن المنحرف. فلابد من حرب بينه وبين الجاهلية من حوله .

---

(١) الحجرات : ١٠ . (٢) المرجع السابق : ٣٧٧ ومابعدها بتصرف .

(٣) الحجرات : ١٥ . (٤) فى ظلال القرآن : ٦: ٣٣٤٩ بتصرف .

وفى المقدمة كل مايتعلق بالفكر اليهودى والسلوك العملى، حتى تنثنى هذه الجاهلية إلى التصور الإيمانى والحياة الإيمانية :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ الصادقون فى عقيدتهم .. الصادقون حين يقولون : إنهم مؤمنون. فإذا لم تتحقق تلك المشاعر فى القلب ولم تتحقق آثارها فى واقع الحياة، فالإيمان لا يتحقق. والصدق فى كمال العقيدة وفى ادعائها لايكون .

ونقف قليلا أمام هذا الاحتراس المعترض فى الآية :

﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾

ونبصر أنه ليس مجرد عبارة. إنما هو لمس لتجربة شعورية واقعية. وعلاج لحالة تقوم فى النفس. حتى بعد إيمانها :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ ﴾ وشبيه بهذا الاحتراس قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾(1) وفى هذا إشارة إلى ما قد يعتور النفس المؤمنة تحت تأثير التجارب القاسية، والابتلاءات الشديدة، من ارتياب ومن اضطراب .. وإن النفس المؤمنة لتصطدم فى الحياة بشدائد تزلزل، ونوازل تزعزع. والتى تثبت فلا تضطرب، وتثق فلا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هى التى تستحق هذه الدرجة عند الله.

والتعبير على هذا النحو ينبه القلوب المؤمنة إلى مزالق الطريق وأخطار الرحلة فى هذه الحياة، والمواجهة مع اليهود ومن على شاكلتهم، لتعزم أمرها، وتستمسك بأخوتها، وتحتسب وتستقيم ولاترتاب عندما يدلهم الأفق ، ويظلم الجو ، وتتناوبها الرياح والعواصف!

وهنا نبصر استجاشة القلوب المؤمنة، واستحياء الرابطة الوثيقة بين المؤمنين، والتى جمعتهم بعد تفرق، وألّفت بينهم بعد خصام، ونبصر التذكير بتقوى الله عز وجل ، والتلويح برحمته التى تنال بتقواه، ونحن نقرأ :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

وإذا ختم النص المنهجى جملة الوحدة الإيمانية بكلمة « إخوة » كانت هذه الكلمة

---

(1) فصلت : ٣٠ والأحقاف : ١٣ .

هى اللبنة التى بها يستمسك بناء الجملة كلها، لتكون نموذجاً لمنهج الرسالة في دستور المؤاخاة التكافلية التى عقدها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بين أفراد المجتمع المسلم .. الذين يتكون منهم الجيش الإسلامى المتجه إلى يهود خيبر...

وهنا نبصر أخوة الدين جليلة القدر، وعظيمة الأثر، كبيرة النفع عميقة الفائدة ..

حقا، إنها الأُخُوّة الزكية، الصافية النقية، والمحبة الندية، والمودة الرضية، والنفحة العلوية، والألفة القدسية، التى تنشىء فى القلب إدراكا كاملا، ونورا شاملا، ونبضا متصلا، وحياة مباركة، هى سراج مابطن وملاك ماعلن، تنطف نورا كأنها قناع رحمة الله ..

نبصر هذا ونحن نقرأ:

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ (١)

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله التى نبصرها حية شاخصة فى هذا الجيش الإسلامى المتجه إلى يهود خيبر ركيزة أساسية من ركائز النصر .. ونعمة يمتن الله عز وجل بها على الجماعة المسلمة الأولى .. وهى نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائما .. وفى هذه الآية التى معنا يذكرهم كيف كانوا فى الجاهلية « أعداء » وما كان أعدى من الأوس والخزرج فى المدينة أحد . وهما الحيان العربيان ..

يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون فى نارها حتى تأكل روابط الحيّين جميعا . ومن ثم تجد يهود مجالها الذى لاتعمل إلا فيه، ولاتعيش إلا معه.

وحاضر الأمة الإسلامية من التفرّق والتمزّق دليل معاصر على أثر مخططات الصهيونية فى هذا المقام، حتى لاتتوحد الأمة، وحتى لايكون النصر للمسلمين ..

ونبصر الآن معالم الدعوة إلى الوحدة الإيمانية .. ونبصر خلفا يحاول جاهدا أن يسير في نفس الطريق.. وعسى أن يؤلف اللّه بين القلوب كما ألف بين قلوب الحيّين من العرب

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

بالإسلام حتى تجمعوا تحت راية الأنصار التى التقت مع راية المهاجرين، وتكوّن هذا المجتمع المثالى، ومن ثم كان هذا الجيش المتوجه إلى خيبرصورة حية معبرة شاخصة لجند الحق، الدين كتب الله لهم النصر على اليهود ..

وليس إلا حبل الله الذى يعتصم به الجميع .. وما يمكن أن يجمع القلوب، ويكوّن الجيش الإسلامى الذى نرجو أن يتوجه إلى الأرض المحتلة ليعيدها إلى أصحابها إلا الأخوة فى الله، تلك التى تصغر إلى جانبها الأحقاد التاريخية، والثارات القبلية، والأطماع الشخصية، والرايات العنصرية .. ويتجمع الصف من جديد تحت لواء الحق ..

ويقف الفكر سابحا، والحس مشدوها، أمام وقع التصوير والتعبير والإدراك والتقدير، فى لمسات وجدانية عقلية، روحية فكرية، فطرية نفسية، لا يؤثر فيها إلا الضمير، ولايطلع عليها إلا اللطيف الخبير. إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إلى أن يجمعها الحق جل شأنه فى مستقر رحمته :

﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ (١)

آمين آمين .

وكل مايقرره القرآن الكريم من سنن إلهية عامة أو خاصة، يمثل جانبا من جوانب المنهج فى الرسالة الخاتمة، وهذا المنهج ـ كما أسلفنا ـ علم وعمل، والرسالة الخاتمة فى جملتها وتفصيلها تعبير فكرى عن الجانب العلمى فى منهجها، وتطبيق واقعى لجوانب العمل فى هذا المنهج .

وقد كانت سياسة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ النابعة من منهج رسالته فى تربية المجتمع المسلم تربية تنقله من تراث الرواسب الموروثة .. بين هذا المجتمع لقيادة الحياة وبين سنن الله الكونية العامة التى تحكم سير الحياة ونظامها العام، وتربط الأحداث والوقائع بأسبابها المألوفة .. ومن ثم كان النصر على اليهود .

الكفاح الصبور :

وهذا الوضع فى هذه الرسالة الخاتمة أساس تربية المجتمع المسلم على الكفاح الصبور، والنضال المتحفز فى سبيل إحقاق الحق وإبطال الباطل حتى لايركن هذا المجتمع إلى الكسل المستسلم، وللخمول المتحجر والتثاؤب النؤوم فى انتظار الخوارق والآيات تتنزّل عليه،

---

(١) الحجر: ٤٧ .

وترقب للمعجزات تسوقه فى حياته، مما يؤدى إلى الاستغراق فى تعطل القوى الإنسانية التى منحها الله لكل إنسان على قدر استعداده اطّراحا للأسباب والأخذ بها، والإخلاد إلى الأرض فى استسلام متبلّد واستكانة متجمدة .

وقدكان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ محيط العلم فى تربيته لمجتمعه المسلم بأن الأسباب المألوفة العامة فى حياة الناس ليست إلا نوعا من الأحداث المشاهدة فى واقع الحياة، كالغائب المحجوب كما تقتضى به فاعلية السنن العامة فى مسيرة الحياة ونظامها، وتحركات الكون بما فيه من عناصر السلب والإيجاب والنفى والإثبات .. ومن ثم كان النصر على اليهود .

الربط بين الأسباب والمسببات تحكمه مشيئة الله :

وهذا الربط بين الأسباب ومسبباتها فى دائرة السنن الكونية العامة ليس ربطاً محتّم الوقوع بمقتضى مدركات العقل ومنطقه ، لأنه قد يتخلف إذا كان أدنى من مستوى الإيجاب الحتمى لتدخل بعض خفيّات الأمور التى هى فوق مستوى الإدراك العقلى تدخلا يحد من فاعلية الأسباب فى ترتب مسبباتها عليها .

ومن ثم كان الإيمان بعدم الوقوف عند هذه الأسباب وظواهرها المتسقة مع مجرى السنن الكونية العامة ضرورة فى التربية العملية والتوجيه السلوكى للمجتمع المسلم، ليعلم هذا المجتمع أن وراء هذه الأسباب فى تسيير الحياة ونظامها موجبات أخرى لها آثارها فى وقوع الأحداث على غيرما تقضى به السنن الكونية العامة، ولكن هذه الموجبات لايحكمها المنطق العام للعقل وحده، ولاتخضع خضوعا مطلقا لمجرى السنن الكونية العامة فى نظام الحياة، وإنما يحكمها نظام خاص يربطها بسنن إلهية خاصة، يتحكم فى ربط بعض الأحداث بموجباتها الغيبية عند توافر دواعيها ومقتضياتها .. ومن ثم أبصرنا الجيش الإسلامى يتحرك نحو خيبر، رغم الفوارق الكبيرة فى العدد والعدة .. ومن ثم كان القضاء على اليهود عسكريا .

وهذه السنن الخاصة لايظهر أثرها فى التحكم فى سير بعض الأحداث إلا فى أوقات خاصة ومقتضيات خاصة، وقد يعم أثرها نظام الحياة فى هذه الأوقات الخاصة، فتشتبه معالمها فى عموم أثرها بالسنن الكونية العامة.

والمثل الواضح لذلك فى تاريخ الرسالات عبر التاريخ البشرى هو آيات الله تعالى التى

يؤيد بها رسله، وقد تشتبه بها عند بعض ذوى العقول القاصرة والوقوف عند ثبات العلم الكونى، واستكشاف تفاعلات عناصر الطبيعة التى يضيق حيّزها عمن ليس من أهلها، فلا يدخل إلا قلة ضئيلة من ذوى العقول الموهوبة بالتفرد، لمعرفة سنن الكون فى سيره وتحركات عناصره وكشف أسراره، مع الغفلة عن دلالاتها على مبدع سنن الكون العامة والخاصة.

وهذا الوضع متحقق فى منهج الرسالة الخاتمة أكمل تحقق بجانبيه العلمى والعملى، وعلى أساسه أقام الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بناء مجتمعه المسلم فى تربيته السلوكية والعسكرية على سواء فقد أخذ ﷺ أفراد هذا المجتمع وجماعاته بدءاً على ضرورة معرفة السنن الكونية العامة، وربط الأسباب بمسبباتها، وأخذهم نهايةً على وجوب تطبيق هذه المعرفة على أحداث الحياة ووقائعها، ووكَل أمر السنن الخاصة لمناسباتها ومقتضياتها .. ومن ثم كان النصر على اليهود.

مقام العبودية:

ونعود إلى دعاء النبى ﷺ الذى كان لايدخل قرية إلا قاله ـ كما عرفنا ـ نعود لنرى فيه هذا الموقف فى مقام العبودية وهو يناشد ربه:

« اللهم ! رب السموات السبع وما أظلت، ورب الأرضين السبع وما أقلت ، ورب الرياح وما أذرت، ورب الشياطين وما أضلت، إنى سائلك خيرها وخيرما فيها، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ».

نعود لنتصور الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بعد أن عبأ أصحابه، وبذل كل الأسباب الممكنة ـ كما أسلفنا ـ مع وجود البشائر والتفاؤل..

نعود لنتصور حال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وهو فى هذا الدعاء المبتهل، وقد نظر إلى أصحابه فى قلة عددهم وضعف عدتهم، وهم العصبة المؤمنة التى تحمل أعناقها على أكفها، زاحفة نحو خيبر التى تجمع بين التفوق العددى والإمكانات العسكرية، يحملون أعلام الوثنية الفكرية اليهودية الجاحدة ، وتخفق فوق هاماتها رايات العنصرية البغيضة الحاقدة، والتعطش لسفك دماء المؤمنين الموحدين، ومعهم قوى العتاد المادى ، وتوافر أسباب الغلبة القتالية من الرجال والسلاح ..

نعود لنبصر تلك الصورة الوضيئة المضيئة لهذه المناجاة الضارعة فى محراب العبودية

المطلقة، والمناشدة البالغة منتهى ما يمكن تصوره فى ميزان الموقف، وما ينتظر من نتائجه العملية لو لم تتغير الأحداث .. تدل على ما كان يتوقعه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من مفاجآت، وما كان يستطلعه فى آفاق مناشدته ربه من مدد إلهى جعل من أصحابه فى قوة إيمانهم، وعظيم ثقتهم بربهم، قوة غالبة، تقتحم الحواجز للقاء الموت وجها لوجه، فى خيبر، فى فدائية لا تبالى أوقعت على الموت أم وقع عليها الموت ، وبهذه الفدائية الإيمانية تم لأصحاب رسول الله ﷺ النصر الذى أذهل كل من سمع به، لأن كل الأحوال المادية المحتفة بالمعركة تجعله بعيد المنال فى واقع تلك الأحوال ..

انقلاب الميزان :

ولم يكن هذا الوضع المتباعد التفاوت فى القوة عددا وعدة بعيدا عن تصور هؤلاء اليهود البغاة و- من شايعهم من الوثنيين الطغاة ــ كما أسلفنا ــ بل كان بين أيديهم وتحت أسماعهم وأبصارهم منذ اللحظة الأولى .. ومع ذلك نبصر انقلاب الميزان بين القوتين ــ كما سيأتى ــ ونبصر تحول مجرى الأحداث ، حيث شحنت القلة المؤمنة بقوة الإيمان الفدائى ، ومن ثم خارت عزائم الفجور اليهودى والوثنى فى قوة العدد وكثرته وقوة العدة وأسلحتها، فقاتلت القلة المؤمنة وبين عينيها هدفها الإيمانى، ليُعبد اللهُ وحده، وليذهب الشرك والوثنية والعنصرية اليهودية وحزب الشيطان إلى مهاوى الفناء ، وقاتلت الكثرة الفاجرة اليهودية ومعها الوثنية، وهدفها نشر أجنحة الطغيان على آفاق الحياة ، ليعم الفجور فجاج الأرض، وليبقى الباطل اليهودى الغشوم هو صاحب السلطان على تلك المنطقة، ويهيمن على مقدراتها، لينتفخ ويتورّم ويملأ الأرض بنتنه وفجوره، ويبقى عبيد الوثنية وأحلاس الشرك العائشون لبطونهم وشهواتهم هم المتحكمون فى مصائر الحياة، يستعبدون الإنسانية من أجل ما فى أيديهم من لعاعات الدنيا ولقمة العيش !

ولكن الله عز شأنه الذى خلق الحياة وما فيها ومن فيها، وجعل زمام العزة فيها للإنسان ، أيا كان هذا الإنسان الذى هو بحكم إنسانيته سيد هذه الحياة بإيمانه بربه وخالقه.. لم يخلقها ليجعل سلطان قيادها فى أيدى حثالة الإنسانية من اليهود البغاة الطغاة الفجرة، ومن على شاكلتهم ممن يشايعهم، يمرحون فيها، ويسرحون فى حمآت الشهوات الداعرة والرغائب الطاغية، وإنما خلقها ليعرّفها بما خلق فيها من أسرار الكون وجلال وحدانيته، ومحكم تدبيره ، وقهر سلطانه، لتفرده وحده بالعبادة حتى تصل بهذه المعرفة إلى الكشف عن أسرار نفسها، ليكون لها من هذا الكشف تحقيق تحررها من عبودية المخلوقين فى شتى صورهم وأشكالهم وحقائقهم، وهذا التحرر هو الدعامة التى ترتكز

عليها الحياة فى أوضاعها الاجتماعية، حتى يستحوذ الصالحون لعمارة الأرض من أبناء الإنسانية على زمام قيادتها بالقوة القاهرة، قوة الإيمان وعزة الحياة وكرامة الإنسان، وتحرير الرازحين فى أغلال الظلم الاجتماعى الظلوم من عبودية لهذا الظلم الفاجر الداعر .

وهذه القوة القاهرة ليست فى كثرة عدد الظالمين، ولافيما يملكون من عدة مادية طاغية باغية، وإنما هى كامنة فى معرفة الإنسان لحقوقه وواجباته فى هذه الحياة، والغضب لسلب هذه الحقوق، وهذا مالا يتحقق إلا بقوة الإيمان بالله عز شأنه، وصدق التوكل عليه، وحب الموت فى سبيل الله عز وجل .

وهذا الإيمان هو العامل الفعال الذى قلب ميزان معركة خيبر وجعل القلة المؤمنة هى سيدة الموقف فيها، ذلك الموقف الذى انتهى بأعظم نصر عرفته المعارك التى دارت فى عصر الرسالة مع اليهود، ومن ثم كان القضاء عليهم عسكريا .

مفاجأة اليهود:

ومع علم اليهود بتحرك الجيش الإسلامى ـ كما أسلفنا ـ فإنهم قد فوجئوا بالمسلمين يصبّحون خيبر. وقد كان وصول الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بجيشه إلى خيبر ليلا... وكان اليهود حتى اليوم الذى وصل فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ مشارف خيبر فى حالة استنفار قصوى؛ لأنهم كانوا يتوقعون المواجهة فى أية لحظة، وكانوا فوق ذلك يستعرضون المقاتلين منهم تقوية لقلوبهم التى أصابها الخوف ـ كما هو شأن اليهود ـ إلا أنهم في هذه الليلة لم يشعروا إلا وجيش المسلمين على مشارف حصونهم التى فتحوها ، وغدَوْا إلى أعمالهم معهم المساحى والمكاتل، وقالوا فى جزع وهلع : محمد والخميس. ثم ولّوْا هاربين إلى حصونهم .. ـ كما سبق ـ وقال النبى ﷺ فيما رواه الشيخان وغيرهما :

« الله أكبر ! خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »

مصير القرى الفاجرة :

والقرى الفاجرة تجرّ على نفسها الهلاك إن آجلا وإن عاجلا .. يروى الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال :

« نهى رسول الله ﷺ أن تشترى الثمرة حتى تطعم » وقال :

« **إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله** » (١) واليهود يشيع فيهم هذا الفساد المزدوج، فهم إلى اليوم دعاة الربا فى العالم، وهم قادة التبرج الذى يدفع إلى الاستثارة المستمرة التى تنتهى - غالبا - عند الذين لاوازع عندهم ولاعاصم من دين وخلق إلى سعار شهوانى لاينطفئ ولايرتوى .. والنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة ، والجسم العارى .. كلها من صنع يهود .. وكلها لاتصنع شيئا إلا أن تثير ذلك السعار الحيوانى المجنون ! وإلا أن يفلت زمام الأعصاب والإرادة فإمّا الإفضاء الفوضوى الذى يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية والعقد النفسية الناشئة من الكبح بعد الإثارة! وهى تكاد تكون عملية تعذيب ! وهذا من صنع يهود !

دور « فرويد اليهودى » :

ولقد شاع وذاع أن النظرة المباحة والحديث الطليق، والاختلاط الميسور، والدعابة المرحة بين الجنسين، والاطلاع على مواطن الفتنة المخبوءة !شاع وذاع أن هذا كله تنفيس وترويح، وإطلاق للرغبات الحبيسة، ووقاية من الكبت، ومن العقد النفسية، وتخفيف من حدة الضغط الجنسى، وما وراءه من اندفاع غير مأمون !

شاع وذاع هذا على إثر انتشار بعض النظريات المادية القائمة على تجريد الإنسان من خصائصه التى تفرقه من الحيوان، والرجوع به إلى القاعدة الحيوانية الغارقة فى الوحل والطين ! وبخاصة نظرية « فرويد اليهودى » - تلك النظرية التى ألف كتابا خاصا بشأنها ولكن كتبه الأخرى تدور حول الغريزة الجنسية؛ لأنه يجعلها مدار الحياة كلها، ومنبع المشاعر البشرية جميعها بلا استثناء ، فيأتى بالأعاجيب(٢) !.

ويصرّ أكثر من ذلك - وهذا هو المهم - على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة عامة بأنها انبثاق جنسى .. وجنسى على وجه التحديد!

مصادفة!

الحياة كلها جنس، ومنبثقة من خلال الجنس!

والجنس يبدأ مبكرا .. لافى مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس.. وإنما من لحظة الميلاد، بل يولد الإنسان جنسا خالصا مركزا فى إهاب طفل حيوانى صغير!.

---

(١) المستدرك : ٢: ٣٧.

(٢) انظر : الإنسان بين المادية والإسلام : ١٦٧ ومابعدها .

والتطور والثبات : ٤٧ وما بعدها .

كل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس !.

الرضاعة جنس !

ومص الإبهام جنس !.

وتحريك العضلات جنس !.

والتبول والتبرز جنس !.

والالتصاق بالأم جنس !.

وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذى يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفرادا وجماعات ! .

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس، ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق. فتنشأ في نفسه عقدة « أوديب» !.

والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس كذلك، ثم تكبت العشق فتنشأ فى نفسها عقدة «إليكترا »!.

ومن هذه العقدة اللعينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد، وكل « القيم العليا » فى حياة البشرية .

والأمر كله مستمد من تلك الحادثة التى « رآها » فرويد اليهودى في منشأ تاريخ البشرية !.

ذلك أن الأبناء ـ في مطلع البشرية ـ اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس، ثم وجدوا أباهم عائقا فى الطريق فقتلوه، ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدسنّ ذكراه، فعبدوه، ومن ذلك نشأت عبادة « الأب » ثم تحولت إلى عبادة « الطوطم »، لأنه فى النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان ! (لماذا ؟!)وفى الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون فيما بينهم للحصول على الأم. وهذا أمر لايجوز ! (لماذا ؟!) فقرروا تحريمها على أنفسهم، فنشأ بذلك أول تحريم (جنسى) وانصب على الأم. كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك (لماذا ؟!) فنشأت «القيم»!

وهذه القصة التى « رآها » فرويد اليهودى تحدث فى البشرية الأولى ليست حادثة تاريخية مفردة، فقد تركت طابعها فى الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين : فكل طفل

يعشق أمه بدافع الجنس. وكل طفل يكبت ذلك العشق. ثم ينمو الدين والأخلاق والتقاليد.. والقيم العليا والحضارة، من ذلك الكبت الجنسى لعشق الأم .. ومع ذلك فالكبت لم ينته، وإنما هو يتحول إلى قلق نفسى دائم لايترك الناس فى راحة !

[«وكل الديانات التى جاءت بعد ذلك هى محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهى تختلف بحسب مستوى الحضارة التى ظهرت فيها ، والوسائل التى تطبقها، ولكنها جميعا تهدف إلى شىء واحد .. رد الفعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذى نشأت عنه الحضارة، والذى لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة!» (فرويد اليهودى)].

واضح أن هذا التفسير للإنسان تفسير حيوانى بحت !

إن هذا كله انحدار بالإنسان إلى عالم البهيمية وأشد، وإننا لنرى فى أشد البلاد إباحية وتفلتا من جميع القيود الأخلاقية، ما يكذب هذا الهراء اليهودى وينقضه من أساسه! ونشاهد الأمراض النفسية والعقد والشذوذ بكل أنواعه.. نجد كل هذا ثمرة مباشرة لهذا الفجور اليهودى!

وواضح مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد، وتقديرها فى نفوس الناس بغمسها فى مستنقع الجنس المستقذر فى بلاد كثيرة وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت!

جاء فى بروتوكولات حكماء صهيون :

« يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل زمان فتسهل سيطرتنا .. إن فرويد منا. وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى في نظر الشباب شىء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه » !

وعلينا أن ندرك خطورة أثر هذا الدور اليهودى فى المجتمع الإسلامى حتى لايحل بنا عذاب الله كما حل بيهود خيبر، وكما سيحل بهم فى الأرض المحتلة حين نواجههم بعقيدتنا وأخلاقنا، وحين يكون علماؤنا فى الخطوط الأمامية ـ كما كان سلفنا الصالح ـ وحين يتوحد الصف الإسلامى على الجهاد فى سبيل الله عز وجل ..

من مخططات يهود:

وفى الوقت ذاته علينا أن ندرك ضرورة البعد عن الربا فى كل صوره وأشكاله، لأنه

من مخططات يهود، والربا عملية تصطدم ابتداء مع قواعد التصور الإيماني إطلاقا، ومن ثم فلا رعاية للمبادئ والأخلاق والغايات التي يريد الله للبشر ان تقوم حياتهم عليها ..

إنه يقوم على أساس تصور خاطئ فاسد. هو أن غاية الغايات للوجود الإنسانى هو تحصيله للمال ـ بأية وسيلة ـ (١) واستمتاعه به على النحو الذى يهوى ! ومن ثم يتكالب على جمع المال وعلى المتاع به، ويدوس فى الطريق كل مبدأ وكل صالح للآخرين ! وهذا خلق يهود !

ثم ينشئ فى النهاية نظاما يسحق البشرية سحقا، ويشقيها فى حياتها أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا، لمصلحة حفنة من المرابين، ويحطها أخلاقيا ونفسيا وعصبيا، ويحدث الخلل فى دورة المال ونمو الاقتصاد البشرى نموا سويا .. وينتهى ـ كما انتهى فى العصر الحديث ـ إلى تركيز السلطة الحقيقية والنفوذ العملى على البشرية كلها فى أيدى زمرة من أحط خلق الله وأشدهم شرا، وشرذمة ممن لايرعون فى البشرية إلاّ ولاذمة ، ولايراقبون فيها عهدا ولاحرمة .. وهؤلاء هم الذين يداينون الناس أفرادا، كما يداينون الحكومات والشعوب فى داخل البلاد وخارجها ـ وترجع إليهم الحصيلة الحقيقية لجهد البشرية كلها، وكدّ الآدميين وعرقهم ودمائهم، فى صورة فوائد ربوية لم يبذلوا هم فيها جهدا !

وهم لا يملكون المال وحده .. إنما يملكون النفوذ .. ولما لم تكن لهم مبادئ ولا أخلاق ولا تصور دينى أو أخلاقى على الإطلاق، بل لما كانوا يسخرون من كل مايتصل بالدين والأخلاق والمثل والمبادئ، فإنهم بطبيعة الحال يستخدمون هذا النفوذ الهائل الذى يملكونه فى إنشاء الأوضاع والأفكار والمشروعات التى تمكنهم من زيادة الاستغلال، ولاتقف فى طريق جشعهم وخسة أهدافهم .. وأقرب الوسائل هى تحطيم أخلاق البشرية وإسقاطها فى مستنقع آسن من اللذائذ والشهوات التى يدفع فيها الكثيرون آخر فلس يملكونه، حيث تسقط الفلوس بعد سقوط النفوس فى المصائد والشباك المنصوبة ! وذلك مع التحكم فى جريان الاقتصاد العالمى وفق مصالحهم المحدودة، مهما أدى هذا إلى الأزمات المعروفة فى علم الاقتصاد، وإلى انحراف الإنتاج الصناعى والاقتصادى كله عما فيه مصلحة المجموعة البشرية إلى مصلحة الممولين المرابين، الذين تتجمع فى أيديهم خيوط الثروة العالمية ! وهذا من أهداف يهود !

---

(١) فى ظلال القرآن : ١ : ٣٢٠ ومابعدها بتصرف .

والكارثة التى تمت فى العصر الحديث ـ ولم تكن بهذه الصورة البشعة فى الجاهلية الأولى ـ هى أن هؤلاء المرابين الذين كانوا يتمثلون فى الزمن الماضى فى صورة أفراد أو بيوت مالية كما يتمثلون الآن فى صورة مؤسسى المصارف العصرية ـ قد استطاعوا بما لديهم من سلطة هائلة مخيفة داخل أجهزة الحكم العالمية وخارجها، وبما يملكون كذلك وسائل التوجيه والإعلام .. أن ينشئوا عقلية عامة بين جماهير البشر المساكين الذين يأكل أولئك اليهود المرابون ومن على شاكلتهم عظامهم ولحومهم، ويشربون دماءهم فى ظل النظام الربوى .. هذه العقلية العامة خاضعة للإيحاء الخبيث المسموم بأن الربا هو النظام الطبيعى المعقول وقد طالعتنا إحدى الصحف وأنا أكتب هذا الموضوع بأن الفائدة التى تقدمها البنوك الربوية حلال، فقلت فى نفسى : إنها العقلية التى خضعت لهذا الإيحاء الخبيث المسموم مهما كان أصحابها !

ثم إن هذا النظام يجعل العلاقة بين أصحاب الأموال وبين العاملين فى التجارة والصناعة علاقة مقامرة ومشاكسة مستمرة. فإن المرابى يجتهد فى الحصول على أكبر فائدة، ومن ثم يمسك المال حتى يزيد الاضطرار فيه فيرتفع سعر الفائدة، ويجد العاملون أنه لافائدة لهم من استخدام هذا المال .. وعندئذ ينكمش حجم المال المستخدم في هذه المجالات التى يعمل فيها الملايين .. ويتعطل العمال .. ويجد المرابون أن الطلب على المال قد نقص أو توقف .. وعندئذ يعودون إلى خفض سعر الفائدة اضطرارا ! .. وهكذا دواليك تقع الأزمات الاقتصادية الدورية العالمية . ويظل البشر هكذا يدورون فيها كالسائمة! وهذا من أهداف يهود !

وإن جميع المستهلكين يؤدون ضريبة غير مباشرة للمرابين اليهود ومن على شاكلتهم.. وقلما ينتهى الأمر عند هذا الحد، ولا يكون الاستعمار هو نهاية الديون .. وهنا تكون الحروب بسبب الاستعمار ! وهذا من أهداف يهود !

حقائق أساسية :

ولا نستعرض عيوب هذا النظام الربوى فى هذا المقام ..وحسبنا أن نشير إلى جملة حقائق أساسية فيما يأتى :

الحقيقة الأولى : أن كل ما يقوله أصحاب الفتاوى فى تحليل الربا كذب ودجل، وخداع ودخل، وتمويه ودغل، وأن أساس النظام الإسلامى يصطدم اصطداما مباشرا بالنظام الربوى، ونتائجه العملية فى حياة الناس وتصوراتهم وأخلاقهم !

والحقيقة الثانية: أن النظام الربوى بلاء على الإنسانية ـ لا في إيمانها وأخلاقها وتصورها للحياة فحسب ـ بل كذلك فى صميم حياتها الاقتصادية والعملية، وأنه أبشع نظام يمحق سعادة البشرية محقا ، ويعطل نموها الإنسانى المتوازن !

والحقيقة الثالثة : أن النظام الأخلاقى والنظام العملى فى الإسلام مترابطان تماما، وأن الإنسان فى كل تصرفاته مرتبط بعهد الاستخلاف وشرطه، وأنه مختبر وممتحن فى كل نشاط يقوم به فى حياته، ومحاسب عليه فى آخرته. فليس هناك نظام أخلاقى وحده، ونظام عملى وحده ، وإنما هما معا يؤلفان نشاط الإنسان، وكلاهما عبادة يؤجر عليها إن أحسن، وإثم يؤاخذ عليه إن أساء، وأن الاقتصاد الإسلامى الناجح لايقوم بغير أخلاق، وأن الأخلاق ليست نافلة يمكن الاستغناء عنها ثم تنجح حياة الناس العملية.

والحقيقة الرابعة: أن التعامل الربوي لا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه، وشعوره تجاه أخيه فى الجماعة، وإلا أن يفسد حياة الجماعة البشرية وتضامنها بما يبثه من روح الشره والطمع والأثرة والمخاتلة والمقامرة بصفة عامة.

أما فى العصر الحديث فإنه يّعد الدافع الأول لتوجيه رأس المال إلى أحط وجوه الاستثمار. كي يستطيع رأس المال المستدان بالربا أن يربح ربحا مضمونا، فيؤدى الفائدة الربوية ويفضل منه شيء للمستدين. ومن ثم فهو الدوافع المباشر لاستثمار المال فى الأفلام السافلة الخليعة، والصحافة الساقطة الرقيعة، وسائر الاتجاهات التى تحطم الأخلاق تحطيما!

والحقيقة الخامسة : أن الإسلام نظام متكامل .. فهو حين يحرم التعامل الربوى يقيم نظمه كلها على أساس الاستغناء عن الحاجة إليه، وينظم جوانب الحياة الاجتماعية كلها على هذا الأساس، بحيث تنتفى منها الحاجة إلى هذا النوع من التعامل، بدون مساس بالنمو الاقتصادى والاجتماعى والإنسانى المطرد .

والحقيقة السادسة : أن الإسلام ـ حين يتاح له أن ينظم الحياة وفق تصوره ومنهجه الخاص ـ لن يحتاج عند إلغاء التعامل الربوى، إلى إلغاء المؤسسات والأجهزة اللازمة لنمو الحياة الاقتصادية العصرية نموها الطبيعى السليم، ولكنه فقط سيطهرها من لوثة الربا ودنسه. ثم يتركها تعمل وفق قواعد أخرى سليمة. وفى أول هذه المؤسسات والأجهزة : المصارف والشركات وما إليها من مؤسسات الاقتصاد الحديث .

والحقيقة السابعة : ـ وهى الأهم ـ ضرورة اعتقاد أن هناك استحالة عقائدية فى أن يحرم الله أمرا لاتقوم الحياة البشرية ولاتتقدم بدونه! كما أن هناك استحالة عقائدية كذلك فى أن يكون هناك أمر خبيث ويكون فى الوقت ذاته حتميا لقيام الحياة وتقدمها .. فالله سبحانه هو خالق هذه الحياة، وهو مستخلف الإنسان فيها، وهو الآمر بتنميتها وترقيتها، وهو المريد لهذا كله الموفق إليه. فهناك استحالة إذن فى تصور المسلم أن يكون فيما حرمه الله شىء لاتقوم الحياة البشرية ولاتتقدم بدونه . وأن يكون هناك شىء خبيث هو حتمى لقيام الحياة ورقيها. وإنما هو سوء التصور . وسوء الفهم والدعاية اليهودية المسمومة الخبيثة الطاغية الباغية العاتية التى دأبت على بث فكرة : أن الربا ضرورة للنمو الاقتصادى والعمرانى، وأن النظام الربوى هو النظام الطبيعى . وبث هذا التصور الخادع فى مناهل الثقافة العامة، ومنابع المعرفة الإنسانية فى مشارق الأرض ومغاربها. ثم قيام الحياة الحديثة على هذا الأساس فعلا بسعى بيوت الأموال والمرابين من اليهود ومن على شاكلتهم. وصعوبة تصور قيامها على أساس آخر وهى صعوبة تنشأ أولا من عدم الإيمان . كما تنشأ ثانيا من ضعف التفكير وعجزه عن التحرر من ذلك الوهم الذى اجتهد المرابون من اليهود ومن على شاكلتهم فى بثه وتمكينه بما لهم من قدرة على التوجيه ، وملكية للنفوذ داخل الأنظمة العالمية، وملكية لأدوات الإعلام العامة والخاصة.

والحقيقة الثامنة: أن استحالة قيام الاقتصاد العالمى اليوم وغدا على أساس غير الأساس الربوى ..ليست سوى خرافة. أوهى أكذوبة ضخمة تعيش لأن الأجهزة التى يستخدمها أصحاب المصلحة فى بقائها أجهزة ضخمة فعلا ! وأنه حين تصح النية، وتخلص الطوية، وتعزم الأمة الإسلامية أن تسترد حريتها من قبضة العصابات الربوية العالمية من اليهود ومن على شاكلتهم، وتريد لنفسها الخير والسعادة والبركة، مع نظافة الخلق، وطهارة المجتمع ، فإن المجال مفتوح لإقامة النظام الآخر الرشيد الذى أراده الله للبشرية، والذى طبق فعلا، ونمت الحياة فى ظله فعلا قديما وحديثا، هنا وهناك، وماتزال قابلة للنمو تحت إشرافه وفى ظلاله لو عقل الناس ورشدوا .. ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ على اليهود ومن على شاكلتهم .

حرب من الله ورسوله:

ولننظر كيف كانت ثورة الإسلام على تلك الشناعة الربوية التى ذاقت منها البشرية ما لم تذقة قط من بلاء .. يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَٰنُ مِنَ الْمَسِّ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِۦ فَانتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ
كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ
وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧)
يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
(٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ
لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ
كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (١)

لقد كانت للربا فى الجاهلية مفاسده وشروره .. ولكن الجوانب الشائهة القبيحة من وجهه الكالح الفاضح الواضح ما كانت كلها بادية فى مجتمع الجاهلية كما بدت اليوم وتكشفت فى عالمنا المعاصر، ولا كانت البثور والدمامل في ذلك الوجه اليهودى الذميم مكشوفة كلها كما كشفت اليوم فى مجتمعنا الحديث. فهذه الحملة المفزعة البادية فى هذه الآيات على ذلك النظام الربوى المقيت، تتكشف اليوم حكمتها على ضوء الواقع الفاجع فى حياة البشرية، أشد مما كانت متكشفة فى الجاهلية الأولى .

ويدرك اليوم من يريد أن يتدبر حكمة الله عز وجل، وعظمة هذا الدين، وكمال هذا المنهج، ودقة هذا النظام .. يدرك اليوم من هذا كله ما لم يدركه الذين واجهوا هذه النصوص أول مرة . وأمامه اليوم من واقع العالم عامة، والعالم الإسلامى خاصة، مايصدّق كل كلمة تصديقا حيا مباشرا واقعا.

والبشرية الضالة التى تقع فى هذا المخطط اليهودى ومن يشايعه فى العالم كله، تأكل الربا وتوكله، ومن ثم تنصب عليها البلايا الماحقة الساحقة من جراء هذا النظام التربوى، فى أخلاقها ودينها وصحتها واقتصادها، وتتلقى ــ حقا ــ حربا من الله تصب عليها النقمة والعذاب.. أفرادا وجماعات، وأمما وشعوبا، وهى لاتعتبر ولاتفيق !

---

(١) البقرة :٢٧٥ ــ ٢٨١ .

حقا، إنها الحملة المفزعة، وإنه التصوير الرعيب، وإنه التهديد الرهيب:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾

وهنا نبصر تنفيرا من الربا، وتبشيعا لحال آكله. والمراد بالأكل ـ كما فى المنار ـ(1) الأخذ لأجل التصرف، وأكثر مكاسب الناس تنفق في الأكل ، ومن تصرف فى شىء من مال غيره يقال: أكله وهضمه، أى أنه تصرف فيه تمام التصرف، حتى لامطمع فى رده .

وأما قيام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس فقد قال ابن عطية فى تفسيره : المراد تشبيه المرابى فى الدنيا بالمتخبط المصروع، كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جن .. وقال الجمهور : المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث، وأن الله تعالى جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين . ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .. وقدوردت آثار فى ذلك .. (2)

وحسبنا أن نذكر مارواه الحاكم بسند صحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قال: (3) .

« الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قُلّ »

وفى رواية أيضا بسند صحيح عن النبى ﷺ قال:

« الربا ثلاثة وسبعون بابا، أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » .

وفى رواية أخرى بسند صحيح ـ كما سبق ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا ظهر الزنا والربا فى قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله » .

فهل يرضى عاقل أن تصير الكثرة إلى قُلّ ؟!

وهل يرضى عاقل أن يقع فى باب من أبواب الربا أيسرها كمن ينكح أمه ؟!

وهل يرضى عاقل أن ينزل به وببلده عذاب الله ؟!

---

(1) تفسير المنار : ٣: ٩٤ بتصرف .
(2) انظر : تفسير الطبرى : ٣: ١٠١ ومابعدها .
(3) المستدرك : ٢: ٣٧ .

من هنا نطلب من كل حاكم وعالم ومؤمن يريد لنفسه ولوطنه الخير والسلامة والعافية والهدى والعفاف والغنى أن يحذر الوقوع فى الربا فى كل صوره وأشكاله ..

وعلى كل فما كان أى تهديد ليبلغ إلى الحس ما تبلغه هذه الصورة المجسمة الحية المتحركة .. صورة الممسوس المصروع .. والنص يستحضرها لتؤدى دورها الإيحائى فى إفزاع الحس، لاستجاشة مشاعر المرابين، وهزها هزة عنيفة تخرجهم من مألوف حياتهم وعادتهم فى نظامهم الاقتصادى، ومن حرصهم على مايحققه لهم من الفائدة .. وهى وسيلة فى التأثير التربوى ناجعة فى مواضعها. بينما هى فى الوقت ذاته تعبر عن حقيقة واقعة وقائمة الآن، ومسلطة على البشرية الضالة التي تتخبط كالممسوس من عقابيل النظام التربوى الذى يحميه ويشجعه اليهود ومن على شاكلتهم ..

والذين يأكلون الربا ليسوا هم الذين يأخذون الفائدة الربوية وحدهم.. وإن كانوا هم أول المهددين بهذا النص الرعيب الرهيب ..

يروى مسلم عن جابر قال: لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال:

« **هم سواء** » (١) .

وخيبر ـ كما قلنا ـ كان يشيع فيها الربا .. يروى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله ﷺ :

« **أكلُّ تمر خيبر هكذا ؟** »

قال: لا والله ! يارسول الله ! إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة، فقال رسول الله ﷺ :

« **لاتفعل ، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبا** » (٢) .

إنهم لايقومون فى الحياة ولايتحركون إلا حركة الممسوس المضطرب، القلق

---

(١) مسلم : ٢٢: المساقاة ١٠٦ (١٥٩٨).

(٢) البخارى ٣٤ ـ البيوع (٢٢٠١، ٢٢٠٢) ومسلم : ٢٢ ـ المساقاة ٩٥ (ت١٥٩٣) والجنيب : قال مالك : هو الكبيس، وقال الطحاوى : هو الطيب ، وقيل: الصلب،وقيل: الذى أخرج منه حشفه ورديئه وقال غيرهم : هو الذى لايخلط بغيره بخلاف الجمع : فتح البارى ٤: ٤٠٠ .

المتخبط الذى لاينال استقرارا ولاطمأنينة ولاراحة ..

وإنها الشقوة البائسة المنكودة التى هى ثمرة التخطيط اليهودى ومن يشايعه.. الشقوة التى لاتزيلها الحضارة المادية، وخفضها ولينها .. وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ فى النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة ؟

إنها حقيقة تواجه من يريد أن يرى، ولايضع على عينيه غشاوة من صنع نفسه كى لايرى !

حقيقة أن الناس فى أكثر بلاد الأرض رخاء .. ليسوا سعداء! إنهم قلقون يُطل القلق من عيونهم وهم أغنياء !

وإن الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون فى الإنتاج !

ومن ثم فهم يقعون فى « التقاليع » الشاذة اليهودية. وفى الشذوذ! ثم يحسون بالحاجة الملحة إلى الهرب .. الهرب من أنفسهم .. الهرب من الخواء المرير الذى يعانون منه أشد المعاناة .. ومن الشقاء المفزع الذى ليس له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها .. ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولايدعهم يستريحون أبدا !

لماذا ؟

السبب الأول طبعا هو خواء هذه الأرواح الضالة المنكودة .. من زاد الروح .. من الإيمان .. من الاطمئنان إلى الله .. وخواؤها من الأهداف الإنسانية الكبيرة التى ينشئها الإيمان .. وكل ذلك ـ كما أسلفنا ـ من صنع يهود ومن على شاكلتهم !

ويتفرع من ذلك السبب الكبير.. بلاء الربا.. تلك الحقيقة الواقعة :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ﴾

والذين لايرون هذه الحقيقة فى واقع البشرية، هم الذين لايريدون أن يروا، لأن لهم هوى فى عدم الرؤية ! وهم الذين رانت على أعينهم غشاوة الفكر اليهودى الأثيم ومن يشايعه !

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

وفى الصفحة المقابلة لصفحة الكفر والإثم، والتهديد الساحق لأصحاب منهج الربا

ونظامه، يعرض القرآن الكريم صفحة الإيمان والعمل الصالح، وخصائص الجماعة المؤمنة التى نصرها الله على اليهود فى هذا الجانب، وقاعدة الحياة المرتكزة إلى نظام الزكاة المقابل لنظام الربا، رجاء أن يعيش المسلمون فى حاضرهم فى رحاب الإيمان ونظامه حتى ينصرهم الله على اليهود :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ويهتف بالذين آمنوا الهتاف الأخير فى هذا المقام ليحولوا حياتهم عن النظام الربوى الدنس المقيت، الذى يقود حملته اليهود ومن على شاكلتهم، وإلا فهى الحرب المعلنة من الله ورسوله، بلا هوادة ولا إمهال ولا تأخير:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

يقول ابن كثير : (١) وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار ..

ويروى ابن جرير عن ابن عباس قال: (٢) فمن كان مقيما على الربا لاينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتيبه، فإن نزع ، وإلاضرب عنقه .

من هنا نطلب من كل حاكم وإمام للمسلمين وعالم ومؤمن غيور يريد لنفسه ولأمته الخير والفلاح والعافية والغنى أن يستتيب أهل الربا وأن يواجههم تلك المواجهة ـ كما قال ابن عباس رضى الله عنهما ـ حتى لا تواجهنا تلك الحرب :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾

ياللهول! حرب من الله ورسوله.. حرب تواجهها النفس البشرية..

ياللهول! حرب رهيبة معروفة المصير .. حرب رعيبة مقررة العاقبة.. فأين الإنسان الضعيف الفانى من تلك القوة الجبارة الساحقة الماحقة ؟!

ياللهول! حرب معلنة فى صورتها الشاملة الداهمة الغامرة .. حرب على الأعصاب

(١) تفسير ابن كثير : ١: ٣٣٠ .   (٢) تفسير الطبرى : ٣: ١٠٨ .

والقلوب .. وحرب على البركة والرخاء .. وحرب على السعادة والطمأنينة ..

ياللهول ! حرب يسلط الله فيها بعض العصاة على بعض .. حرب المطاردة والمشاكسة حرب الظلم والقلق .. وأخيرا حرب السلاح بين الأمم والجيوش والدول!

يا للهول! حرب مشبوبة دائما.. أعلنها الله على المتعاملين بالربا الذى هو خلق يهود ومن على شاكلتهم :

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

وتأتى السماحة الندية العلوية الرضية، التى يحملها الإسلام للبشرية .. فالإسلام وحده هو الظل الظليل الذى تأوى إليه البشرية فى هجير الأثرة والشح والطمع، والأنانية والجشع ، والتكالب والسعار .. وهذه السماحة الندية العلوية الرضية هى الرحمة للدائن والمدين وللمجتمع الذى يظل الجميع :

﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ويجىء التعقيب العميق الإيحاء، الذى ترتجف منه النفس المؤمنة وتتمنى لو تنزل عن الدَّين كله ، ثم تمضى ناجية يوم الحساب :

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

وهذا اليوم الذى يرجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ماكسبت له فى الجنان المؤمن وقع، ومشهده حاضر فى ضميره ، وله فيه هول .. والوقوف بين يدى الله فى هذا اليوم خاطر يزلزل الكيان !

وهو تعقيب يتناسق مع جو المعاملات .. جو الأخذ والعطاء .. جو الكسب والجزاء.. إنه التصفية الكبرى للماضى جميعه بكل ما فيه.. والقضاء الأخير بين كل من فيه. فما أجدر الجنان المؤمن أن يخشاه وأن يتوقاه .. وما أجدرنا أن نظهر اقتصادنا من هذا النظام الربوى، وأن نحذر الوقوع فى حبائل هذا المخطط الذى يقود حركته اليهود ومن على شاكلتهم ، حتى ينصرنا الله ونسترد الأرض المغتصبة .

* * *

الفصل الثالث

الهزيمة العسكرية

عليّ يحمل الراية ـ يامنصور أمت ـ حصون خيبر ـ الحراسة ـ أول عمل حربى ـ معسكر المسلمين الأول ـ أول شهيد ـ قتل مرحب اليهودى ـ شدة الموقف ـ سقوط حصن ناعم - اليهودى الذى طلب الأمان فأعطيه ـ حصن الصعب ـ الحباب بن المنذر يحمل الراية ـ المدافعون عن الحصن ـ المبارزة ـ التراشق بالسهام ـ هجوم مضاد ـ معركة ضارية ـ مصرع سلاّم بن مشكم ـ انهزام اليهود ـ بداية النهاية ـ تطهير منطقة النطاة ـ قلعة الزبير ـ صعوبة الاقتحام ـ فتح الحصن ـ حصون الشق ـ ضرب الحصار على القلعة ـ فتح القلعة ـ حصن النزار ـ الهجوم على الحصن ـ نصب المنجنيق ـ زحف الجيش الإسلامى ـ الاستسلام النهائى ـ تسامح الرسول ﷺ ـ معالم اتفاقية التسليم ـ هكذا فتحت خيبر ـ نهاية الطاغوت اليهودى ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ـ الرسول القائد ـ النبى ﷺ يعيد التوراه لليهود ـ اعتراف ولفنسون ـ النبى ﷺ يتزوج صفية ـ اليهود يقدمون شاة مسمومة للنبى ﷺ ـ قدوم مهاجرى الحبشة ـ استسلام يهود فدك ـ فتح وادى القرى ـ يهود تيماء يدفعون الجزية ـ قصة الرهان ـ حسان يهجو يهود خيبر ـ المسلمون واليهود وجها لوجه ـ « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » ـ « إن تنصروا الله ينصركم » ـ موقف شهيد ـ صورة مقابلة .

عليٌّ يحمل الراية :

سبق أن عرفنا متى كانت تلك الغزوة .. وهنا نذكر مارواه الشيخان وغيرهما عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر :

« لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه.، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله » .

قال: فبات الناس يدُوكون ليلتهم : أيُّهُم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غَدوا على رسول الله ﷺ كلُّهم يرجو أن يعُطاها، فقال :

« أين عليٌّ بن أبى طالب ؟ »

فقيل : هو يارسول الله ! يشتكى عينيه . قال: فأرسلوا إليه، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعاله فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. فقال على : يارسول الله! أُقاتلُهم حتى يكونوا مثلنا. فقال:

« انفُذْ على رِسْلك . حتى تنزل بساحتهم، ثم ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله ! لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعم » (١).

وهذا الحديث الثابت الصحيح ظاهر الدلالة فى تصوير منهج الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لشرعية الجهاد فى الدعوة إلى الله عز وجل ـ كما أسلفنا ـ وما ينبغى أن تستهدفه هذه الدعوة، فعليّ رضى الله عنه يسأل الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن قتال هؤلاء اليهود الأعداء الخونة الغدرة ـ كما عرفنا ـ ليبين للناس مانزّل إليهم من شرعية الجهاد لحماية الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدفاع عنها فى مسيرتها ، حتى يعلموا أن الجهاد فى هذا المنهج إنما هو وسيلة للهداية، وهى أعز ما يكسبه المجاهدون فى جهادهم، وأنها خير مايؤتاه مدعو إليها فيستجيب لها، وأن تألف القلوب وجذبها إلى ساحتها هو مايجب على المجاهدين أن يجعلوه نصب أعينهم، ومقصدهم من جهادهم.

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٢١٠)، ومسلم : ٤٤ ـ فضائل الصحابة ٣٤ (٢٤٠٦) وأحمد : ٥: ٣٣٣ وقوله « يدوكون » ـ بمهملة مضمومة ـ : أى باتوا فى اختلاط واختلاف ، والدوكة ـ بالكاف ـ : الاختلاط : فتح البارى : ٧: ٤٧٧ .

قال ابن حجر [١] يؤخذ منه أن تألف الكافر أولى من المبادرة إلى قتله.

ونبصر من خلال هذ الحديث أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يسوق هذا النصح الرشيد، ليقطع تطلع النفوس إلى الغنائم المعجلة، فإن ثروة يهود ــ إذا هزموا ــ ضخمة، ولكن ثواب مقاتليهم ــ إذا اهتدوا ـ أضخم .

ولو ترك اليهود الخلال الدنيئة ، ونزلوا على أحكام الله، لأراحوا واستراحوا. ولكنهم تعجلو الشر فباءوا به !

ويروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر :

«لأعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله. يفتح الله على يديه».

قال عمر بن الخطاب : ما أحبَبْت الإمارة إلا يومئذ قال: فتساورْت لها [٢] رجاء أن أدْعى لها. قال: فدعا رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب. فأعطاه إياها . وقال: « أمشِ. ولا تلتفت. حتى يفتح الله عليك».

قال : فسار علىّ شيئا، ثم وقف ولم يَلْتَفت . فصرخَ : يارسول الله ! علَى ماذا أقاتلُ الناس ؟ قال :

« قاتلهم حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله. فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم. إلا بحقها. وحسابهم على الله » [٣].

قال ابن حجر : [٤] والراية بمعنى اللواء، وهو العلم الذى فى الحرب يُعرف به موضع صاحب الجيش، وقد يحملة أمير الجيش، وقد يدفعه لمقدم العسكر، وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذى من حديث ابن عباس : « كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض» ومثله عند الطبرانى عن بريدة، وعن ابن عدى عن أبى هريرة، وزاد « مكتوبا فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ». وهو ظاهر فى التغاير، فلعل التفرقة بينهما عرفية، وقد ذكر ابن إسحاق، وكذا أبو الأسود عن عروة: أن أول ما وجدت الرايات يوم خيبر ، [٥] وماكانوا يعرفون قبل ذلك إلا الألوية. وفى المعجم

(١) فتح البارى : ٧: ٤٧٨ .

(٢) معناه : تطاولت لها . أى حرصت عليها. أى أظهرت وجهى وتصديت لذلك ليتذكرنى .

(٣) مسلم : ٤٤ ــ فضائل الصحابة ٣٣ (٢٤٠٥) .

(٤) فتح البارى : ٧ :٤٧٧ .

(٥) انظر : الطبقات الكبرى : ٢: ١٠٦ .

الوسيط : (١) اللواء : العلم ، وهو دون الراية.

قال ابن سعد وغيره: كانت راية النبى ﷺ السوداء من برُد لعائشة تُدْعَى العُقاب، ولواؤه أبيض دفعه إلى علىّ بن أبى طالب . (٢)

يامنصور أمت :

وقبل الهجوم أعطى النبىﷺ راية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سعد ين عبادة، وكان شعارهم: يامنصور أمت . (٣)

حصون خيبر :

وقد تحصّن اليهود ــ كما هى عادتهم دائما ــ داخل الحصون، وهى ذوات عدد:

منها : النّطاَة، ومنها : حصْن الصَّعْب بن مُعاذ، وحصْن ناعم، وحصْن قلعة الزّبير، والشّق وبه حصون :منها حصْن أبىّ، وحصْن النّزار، وحصون الكتيبة : منها : القموص، والوطيح، وسُلا لم، وهو حصْن بنى أبى الحُقيق. (٤)

الحراسة :

وقد أنشأ الرسول الحبيب المحبوبﷺ قوة للحراسة، تقوم بالدوريات أثناء الليل، لترقب حركات العدو، والطواف حول قلاعه وحصونه، وكان من بين الذين تولوا حراسة المعسكر الإسلامى وقاموا بالدورية ليلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٥) أما قيادة المعسكر وإدارة شئونه فى الرجيع فقد أسندت إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه . (٦)

أول عمل حربى :

ويستفاد من أحاديث المؤرخين أن أول عمل حربى قام به الجيش الإسلامى ــ بعد إنذار اليهود ــ هو الشروع فى الاستيلاء على المزارع والنخيل، كما قاموا بقطع أربعمائة نخلة فقط إرهابا للعدو، وكانت هذه المزارع وما فيها من نخيل تقع فى الشق الأول من منطقة « النّطاة » والشق الأول من خيبر، والتى شهدت ــ كما سيأتى ــ أعنف

---

(١) المعجم الوسيط (لوى) .

(٢) الطبقات الكبرى : ٢ : ١٠٦ والمواهب : ٢: ٢٢٢ .

(٣) المرجع السابق . (٤) المرجع السابق .

(٥) غزوة خيبر : ١٤٦ نقلا عن : السيرة الحلبية :٢: ١٥٩ .

(٦) إمتاع الأسماع : ١٣٢ .

المعارك. [١]

معسكر المسلمين الأول :

وكان حصن « ناعم » أول ما فتح من حصون خيبر، كما ذكر ابن إسحاق . [٢] ومعلوم أن اقتحام هذه الحصون وتلك القلاع مهمة صعبة جدا، لأن ذلك يتطلب آلات تدميرية، ولأن اليهود متحصنون وراء أسوار هذه الحصون وتلك القلاع ..

وحصن «ناعم» هو حصن «مرحب» فارس اليهود المشهور .. وقد دار القتال عنيفا، وشدد المسلمون الهجوم، ولكنهم لاقوا من اليهود ـ بقيادة مرحب وأخويه ياسر والحارث ـ مقاومة عنيفة، وبلغ اليهود فى الاستماتة للدفاع أن يفتحوا أبواب هذا الحصن ويقوموا بهجوم معاكس، فسالت كتائبهم على المسلمين .. وقد تمكن الأنصار من دحر القائد اليهودى .. وطاردوهم حتى أدخلوهم الحصن فأغلقوا على أنفسهم الأبواب. غير أن اليهود عاودوا الهجوم من جديد، ففتحوا أبواب الحصن، وشنوا هجمات عنيفة، فصمد لهم المسلمون، ولكن اليهود ضغطوا عليهم بعنف .. [٣]

أول شهيد :

وفى اليوم الأول كان أول شهيد فى هذه المعركة ، وهو محمود بن مسلمة رضى الله عنه .. قتل غيلة ، حيث ألقى عليه مرحب رحى فأصابت رأسه، فهشمت البيضة رأسه، وسقطت جلدة جبينه على وجهه، وأُتى به إلى رسول الله ﷺ ، فرد الجلدة فرجعت كما كانت ، وعصبها بثوب، فمكث محمود ثلاثة أيام، ثم مات رضى الله عنه [٤].

قتل مرحب اليهودى :

يروى مسلم من حديث سلمة بن الأكوع .. قال : [٥] .. خرج ملكهم مرحبُ يخطر بسيفه ويقول :

قد علمتْ خيبرُ أنى مرحبُ   شاكِي السلاح بطلٌ مُجرّبُ

إذا الحروب أقبلتْ تلهّبُ

---

(١) انظر السيرة الحلبية : ٢: ١٥٨ .

(٢) الروض الأنف : ٤: ٤٠ والإصابة : ٦: ٦٧ : (٧٧١٦) .

(٣) غزوة الأحزاب : ١٥٠ نقلا عن : إمتاع الأسماع : ٣١٤ .

(٤) الإصابة : ٦: ٦٧ .

(٥) مسلم ٣٢ ـ الجهاد ١٣٢ (١٨٠٧) .

قال: وبرزله عمّى عامر، فقال :

قـد علمتْ خيبـر أنى عامـرُ   شـاكى السـلاح بطل مغامـرُ

قال : فاختلفا ضرْبتين. فوقع سيفُ مرحب فى ترُس عامر. وذهب عامر يسْغُل له .(١) فرجع سيفه على نفسه. فقطع أكحَله. فكانت فيها نفسه.

قال سلمة : فخرجْت فإذا نفر من أصحاب النبى ﷺ يقولون : بطلَ عملُ عامرٍ . قتل نفسه. قال فأتيت النبى ﷺ وأنا أبكى فقلت : يارسول الله! بطل عمل عامر ؟ قال رسول الله ﷺ :

« مَنْ قال ذلك ؟»

قال قلت : ناس من أصحابك . قال:

« كذَب من قال ذلك . بل له أجره مرتين »

ثم أرسلنى إلى علىّ ، وهو أرمد. فقال:

« لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله، أو يحبه الله ورسوله »

قال: فأتيتُ عليّا فجئت به أقوده، وهو أرمد. حتى أتيت به رسول الله ﷺ . فبسق فى عينيه فبرأ . وأعطاه الراية. وخرج مرحب فقال:

قد علمتْ خيبـر أنى مرحبُ   شاكى السلاح بطلٌ مجرّب

إذا الحـروب أقبـلتْ تَـلهّب

فقال على :

أنا الذى سمّتنى أمّى حيـدره (٢)   كَلَيْث غابـاتٍ كريـه المَنْظره

أوفِّيهمُ بالصاع كيْل السّنْدره (٣)

---

(١) يسغل له : أى يضربه من أسفله. مسلم بشرح النووى : ١٢ : ١٨٥.

(٢) حيدرة : اسم للأسد : وكان علىّ رضى الله عنه قد سمىّ أسدا فى أول ولادته، وكان مرحب قد رأى فى المنام أن أسدا يقتله، فذكره علىّ بذلك ليخيفه ويضعف نفسه.. وسمى الأسد حيدرة لغلظه، والحادر : الغليظ القوى . ومراده : أنا الأسد على جرأته وإقدامه وقوته. المرجع السابق . وانظر : المواهب : ٢: ٢٢٤.

(٣) كيل السندرة : معناه : أقتل الأعداء قتلا واسعا ذريعا. والسندرة : مكيال واسع، وقيل: هى العجلة. أى اقتلهم عاجلا، وقيل: مأخوذ من السندرة. وهى شجرة الصنوبر يعمل منها النبل والقسى. المرجع السابق.

قال: فضرب رأس مرحبٍ فقتله. ثم كان الفتح على يديه.

وقال الحاكم : إن الأخبار متواترة بأسا نيد كثيرة أن قاتل مرحب أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه (١).

قال ابن حجر : (٢) وخالف ذلك أهل السير، فجزم ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدى بأن الذى قتل مرحباً هو محمد بن مسلمة، وكذا روى أحمد بإسناد حسن عن جابر، وقيل: إن محمد بن مسلمة كان بارزه فقطع رجليه فأجهز عليه عليّ ، وقيل : إن الذى قتله هو الحارث أخو مرحب، فاشتبه على بعض الرواة، فإن لم يكن كذلك وإلا فما فى الصحيح مقدم على ماسواه، ولا سيما وقد جاء من حديث بريدة أيضا عند أحمد والنسائى وابن حبان والحاكم (٣).

قال ابن عبد البر: إنه الصحيح . وقال ابن الأثير: الصحيح الذى عليه أهل السير والحديث أن عليا قاتله. وقال الشامى : ما فى مسلم مقدم من وجهين :

أحدهما : أنه أصح إسنادا .

الثانى : أن جابرا لم يشهد خيبر، كما ذكر ابن إسحاق والواقدى وغيرهما، وقد شهدها سلمة وبريدة وأبو رافع، فهم أعلم ممن لم يشهدها، وما قيل : إن ابن مسلمة قطع ساقى مرحب ولم يجهز عليه، ومرّ به عليّ فأجهز عليه ، يأباه حديث سلمة وأبى رافع(٤).

شدة الموقف :

وقد دلت المعارك الضارية التى خاضها المسلمون أمام حصن «ناعم» على أنه أمنع وأقوى حصون خيبر.. وأن المسلمين الذين يحاولون جاهدين الاستيلاء على هذا الحصن قد أصابتهم الحمى ، فقد روى البيهقى فى الدلائل عن أبى عثمان النهدى أو عن أبى قلابة قال: لماقدم النبىﷺ خيبر، قدم والثمرة خضرة ، قال: فأسرع الناس إليها فحمّوا ــ أى أصابتهم الحمّى ــ فشكوا ذلك إليه ، فأمرهم أن يقْرسوا الماء ــ أى يجعلونه شديد البرودة ــ فى الشّنان، ثم يجرونه عليهم إذا أتى الفجر، ويذكرون اسم الله عليه ، ففعلوا

(١) المستدرك : ٣: ٤٣٧ .

(٢) فتح البارى : ٧: ٤٧٨ .

(٣) المواهب : ٢: ٢٢٤ وابن هشام : ٢: ٣٣٣ ــ ٣٣٤ عن ابن إسحاق ، وأحمد : ٣: ٣٨٥ والحاكم : ٣: ٤٣٦ وزاد المعاد : ٣: ٣٢١ ــ ٣٢٢ .

(٤) المواهب : ٢: ٢٢٤ .

ذلك ، فكأنما نشطوا من عقل . (١)

سقوط حصن ناعم :

ويدل سياق المؤرخين ــ كما تقدم ــ أن أعنف قتال شهدته خيبر إنما هو القتال الذى دار حول هذا الحصن .. وقد بلغ اعتداد اليهود المرابطين بأنفسهم إلى أن خرجوا أكثر من مرة ، وهاجموا المسلمين .. وبالرغم من هذه الجولة التى قتل فيها مرحب اليهودى ، فإن حصن ناعم لم يستلسم للمسلمين فى الحال، بل ظل هؤلاء اليهود محتفظين به، يدافعون عنه بضراوة ، وظل ياسر بعد مقتل أخويه ــ مرحب والحارث. ويدافع عن الحصن، وبلغت به الجرأة ــ بعد أن لقى أخواه مصرعهما ــ إلى حد غير معهود عن اليهود فى تاريخهم، فقد تحدى المسلمين وخرج من الحصن تحرسه قوات كثيفة، وركز رمحه، وأخذ يجول بفرسه، وهو يطلب المبارزة . وأخيراً قتل (٢) وجاء بعده القائد الرابع، عامر اليهودى ، قتله علىّ رضى الله عنه أمام الحصن، (٣) كما قتل محمد ابن مسلمة قائدا يهوديا خامسا ..

وانهارت المقاومة فى صفوف هؤلاء اليهود المدافعين عن الحصن الذى شدد المسلمون عليه حتى اقتحموه ففتحوه .

اليهودى الذى طلب الأمان فأعطيه:

وقرب انتهاء مقاومة اليهود فى الحصن، وبينما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقوم بأعمال الدورية ليلا، والمسلمون على وشك اقتحام حصن ناعم، ألقى رجاله من الحرس القبض على رجل من اليهود، فأتى به إليه، فأمر به عمر أن تُضرب عنقه، ظنا منه أنه جاسوس لليهود، بيد أن اليهودى قال لعمر: اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه، فأمسكه عمر، وانتهى به إلى رسول الله ﷺ ، فوجده يصلى ، فدخل عليه به، وطلب اليهودى الأمان على أن يصدقه، وقال: خرجت من حصن النطاة من عند قوم ليس لهم نظام، تركتهم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة، وأرشد إلى المكان الذى يتوجهون إليه، وبيّن أن اليهود قد رعبوا ، وأن أفئدتهم لتخفق، ومضى اليهودى فى حديث طويل عن حال اليهود، وترك النبى ﷺ اليهودى وشأنه حرا، وانشغل بإدارة دفة المعارك، وعندما وضعت

---

(١) البداية والنهاية : ٤: ١٩٥ .

(٢) غزوة خيبر : ١٦٧ وما بعدها بتصرف ، وانظر: ابن هشام :٢: ٣٣٤ وإمتاع الأسماع : ٣١٦ والسيرة الحلبية : ٢: ١٦٣ .

(٢) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٦ .

الحرب أوزارها، واستولى المسلمون على جميع حصون خيبر ـ كما سيأتى ـ أسلم اليهودى ..(1) واسمه سمّاك الخيبرى .. قال ابن حجر : ذكر الواقدى أن عمر أسره يوم خيبر لما فتحوا النطاة، فقدمه ليضرب عنقه، فقال : أبلغنى أبا القاسم ،فأبلغه فدله على عوراتهم، ثم أسلم سماك وخرج من خيبر، فلم يعد إليها بعد أن استوهب من النبى ﷺ زوجته فقبله فوهبها له . استدركه ابن فرحون، وذكره الرشاطى فى الخيبريين . (2)

حصن الصعب :

ثم كان حصن الصعب بن معاذ من حصون النطاة، المنطقة الواقعة فى القسم الأول من خيبر . (3)

ويعتبر الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة والتحصين .. وقد كان قادة اليهود عندما رسموا خطتهم أن يكون حصن ناعم ـ كما أسلفنا ـ خط الدفاع الأول، لمكانه الاستراتيجى ، ومن ثم نقلوا منه ـ قبل وصول المسلمين ـ النساء والأطفال وكل أموالهم إلى حصن النّزار، ولم يتركوا فى حصن ناعم سوى حملة السلاح الذين عليهم أن يدافعوا عن الحصن.

وذلك ليسهل عليهم الانسحاب ـ وقت الضرورة العسكرية ـ من حصن ناعم إلى خط الدفاع الثانى ـ حصن الصعب بن معاذ ـ ولتكون نساؤهم وذراريهم وأموالهم فى مأمن إذا ماقدّر للمسلمين أن يستولوا على حصن ناعم . وفعلا فإن مقاومة اليهود عندما انهارت ـ كما أسلفنا ـ وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، تمكنوا بكل سهولة من الانسحاب إلى حصن الصعب، ويدلنا على ذلك أن أحدا من اليهود لم يقع فى أسر المسلمين .

ومن ثم توجه المسلمون إلى خط الدفاع الثانى ـ حصن الصعب بن معاذ ـ فضربوا عليه الحصار تمهيدا لاقتحامه وفتحه .

الحباب بن المنذر يحمل الراية :

وكانت قيادة الجيش للحباب بن المنذر الأنصارى ، للقيام بالهجوم على هذا الحصن،

---

(1) انظر : السيرة الحلبية : ٢: ١٥٩ والواقدى : ٢: ٦٤٦ ـ ٦٤٨ .

(2) الإصابة : ٣: ١٢٩ .

(3) غزوة خيبر : ١٨٣ وما بعدها بتصرف .

ومن ثم تولى أمر الهجوم حتى فتحه . (١)

المدافعون عن الحصن :

وكان حصن الصعب منيع الأسوار عالى الأبراج، وكان مشحونا بالمقاتلين اليهود، ومعهم رماة على غاية من المهارة فى إصابة الهدف وكان عدد المدافعين خمسمائة مقاتل، بقيادة اثنين : أحدهما يقال له : «يوشع» والثانى : « الديّال » (٢) .

المبارزة :

وذكر المؤرخون أن اليهود دافعوا عن حصن الصعب بن معاذ بشراسة وضراوة لاتقلان عن الضراوة والشراسة فى الدفاع عن حصن ناعم ـ كما أسلفنا ـ بل كان دفاعهم عن حصن الصعب أشد وأقوى؛ لأنه كان يضم كثيرا من الأموال والعتاد الحربى (٣).

وعندما أخذت قوات الجيش الإسلامى مواقعها، وضربت الحصار على اليهود فى هذا الحصن، خرج كبير قادة اليهود على فرسه أمام الحصن، وطلب المبارزة ، على الطريقة التقليدية آنذاك، وهذا القائد : «يوشع» الذى خرج لملاقاته حامل لواء الجيش الإسلامى، والمكلف بقيادة الهجوم :

« الحباب بن المنذر » فنازله ـ مبارزة ـ وبعد كرّ وفرّ ومقارعة عنيفة بالسيوف تمكن القائد المسلم من قتل القائد اليهودى .

وهنا خرج القائد اليهودى الثانى : « الدّيال » فخرج إليه عمارة بن عقبة الغفارى، وجرت المطاردة، وحمل عمارة حملة صادقة على القائد اليهودى فسدد إليه ضربة كانت القاضية.

وكان قتل هذين القائدين اليهوديين مبارزة أمام الحصن بداية سيئة لليهود المدافعين .

التراشق بالسهام :

وقد استشاط اليهود غضبا لمقتل قائديهم : « يوشع » و« الدّيال » فقاموا بهجوم عنيف معاكس على المسلمين، مهّدوا له بقذف شديد من سهامهم التى صبّوها كالمطر على

---

(١) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٦ وما بعدها .
(٢) انظر : السيرة الحلبية : ٢: ٦٤ .
(٣) المرجع السابق : ١٨٩ ومابعدها بتصرف .

المسلمين من أبراج الحصن، وقد ركز اليهود أثناء قذفهم المسلمين بالسهام على الموقع الذى يقف فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بغية إصابته ..

وقد تساقطت نبال اليهود حول هذا الموقع، فأقام المسلمون من أنفسهم تُرْساً حول النبى القائد ﷺ .. وكان المسلمين يردون على هذا القذف بمثله، ولكن اليهود كانوا يتسترون وراء أسوار وجدران حصنهم، بينما كان المسلمون مكشوفين أمام الحصن..

هجوم مضاد :

وبعد معركة التراشق بالسهام ، وانتصار المسلمين فى عمليات المبارزة شدد المسلمون من حصارهم حول الحصن، وحاولوا اقتحامه بهجوم عام، إلا أنهم قوبلوا من قبل اليهود بمقاومة عنيفة حالت بينهم وبين الاقتحام .

بل إن اليهود بلغ بهم الحقد والغيظ والشراسة فى الدفاع إلى أن يفتحوا أبواب الحصن، ويقوموا بهجوم مضاد عنيف.. وصمد المسلمون.. وشن اليهود هجوما معاكسا ثانيا، وفتحوا أبواب حصنهم، وحملوا على المسلمين حملة شرسة، وثبت المسلمون مع قائدهم الحباب ابن المنذر، وقابلوا هجوم اليهود بهجوم مضاد آخر، فدارت أمام الحصن معركة طاحنة استمات فيها الفريقان، وسقط من المسلمين عدد من الشهداء، وكان النصر فى النهاية للمسلمين الذين دحروا اليهود، حتى ولّوا منهزمين فدخلوا حصنهم ـ كما هو شأن اليهود ـ وأغلقوا على أنفسهم الأبواب !

معركة ضارية :

يقول المقريزى : (١) ولما أقام المسلمون على حصن الصعب يومين عدا بهم الحباب بن المنذر فى اليوم الثالث، ومعه الراية، فقاتلهم أشد قتال، وبكر رسول الله ﷺ فتراموا بالنبل، وقد ترّس المسلمون على رسول الله ﷺ ، ثم حملت اليهود حملة منكرة، فانكشف المسلمون، حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ، وهو واقف قد نزل عن فرسه ومدعم(٢) ـ مولى رسول الله ﷺ ـ يمسك الفرس، وثبت الحباب برايته يرميهم على فرسه .

فندب رسول الله ﷺ الناس وحضّهم على الجهاد، فأقبلوا حتى زحف بهم الحباب، واشتد الأمر ، فانهزمت اليهود، وأغلقوا الحصن عليهم، ورموا على جدره بالحجارة رميا كثيرا، فتباعد عنهم المسلمون، ثم كروا فخرجت اليهود وقاتلوا أشد قتال، فقتل ثلاثة من

---

(١) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٧ .
(٢) انظر : الإصابة : ٦: ٧٤ .

المسلمين ، ثم هزمهم الله تعالى.

قال الواقدى : حدثنى خالد بن إلياس عن جعفر بن محمود بن محمد عن محمد بن مسلمة قال : كنت فيمن ترّس عن النبى ﷺ ، فجعلت ــ عند اشتداد الهجوم ــ أصيح بأصحابه: تراموا بالجحف ! ففعلوا، فرمونا ــ أى اليهود ــ حتى ظننت أن لا يُقلعوا، فرأيت رسول الله ﷺ رمَى بسهم، فما أخطأ رجلا منهم، وتبسّم إلىّ رسول الله ﷺ ، وانفرجوا ودخلوا الحصن .

وحدث الواقدى أيضا عن جابر بن عبد الله الأنصارى أنه قال يصف القتال العنيف أمام حصن الصعب بن معاذ : لما انتهينا إلى حصن الصعب بن معاذ وغزا بنا الحباب بن المنذر بن الجموح، ومعه رايتنا وتبعه المسلمون، وقد أقمنا على حصن الصعب يومين نقاتلهم أشد القتال، فلما كان اليوم الثالث بكّر رسول الله ﷺ ، فخرج رجل من اليهود من الحصن كأنه الدَّقَل (١)، وخرج وعاديته معه، (٢) فرموا بالنبل ساعة سراعا، وترّسنا عن رسول الله ﷺ ، وأمطرونا بالنبل، فكأن نبلهم الجراد، حتى ظننت ألا يُقلِعوا، ثم حملوا حملة رجل واحد، فانهزم المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف ، قد نزل عن فرسه، ومدعم مولاه يمسك فرسه، وثبّتَ الحباب رايتنا، والله ! ما يزال يراميهم على فرسه .

وندب رسول الله ﷺ المسلمين، وحضّهم على الجهاد ورغّبهم فيه، وأخبرهم أن الله قد وعده خيبر يغنّمه إياها، قال :-فأقبل الناس جميعا حتى أتوا إلى صاحب رايتهم، ثم زحف بهم الحباب، فلم يزل يدنو قليلا قليلا، وتراجع اليهود على أدبارها حتى لَحَمَها الشر، فانهزموا سراعا ودخلوا الحصن وغلّقوا عليهم، ووافَوْا على جدُر ــ ولهم جُدر دون جدر ــ (أى سور خلف سور) فجعلوا يرموننا بالجندل ــ أى الصخر ــ رميا كثيرا، ونحّونا عن حصنهم بوقع الحجارة، حتى رجعنا إلى موضع الحباب الأول .

ثم إن اليهود تلاومت بينها، وقالت : مانستبقى لأنفسنا ؟ قد قتل أهل الجد والجلد فى حصن ناعم، فخرجوا مستميتين، ورجعنا إليهم، فاقتتلنا على باب الحصن أشد قتال.

---

(١) الدّقل : خشبة طويلة تشد فى وسط السفينة يمد عليها الشراع، وتسميه البحرية: الصارى.! المعجم الوسيط ــ (دقل) وقد شبه اليهودى بالدقل لطول جسمه .

(٢) العادية : جماعة من القوم يعدون للقتال. (المعجم الوسيط ـ عدا) وتلك عادة عند اليهود وبعض الأمم الأخرى كالأحباش، ترى هؤلاء يجرون أمام دابة القائد أو الحاكم .

وقتل يومئذ ثلاثة من أصحاب رسول الله ﷺ :

أبو ضياح بن النعمان، من أهل بدر . (١) ضربه رجل بالسيف فأطن رقحْف رأسه (٢).

وعدى بن مرة بن سراقة ، حليف الأنصار، (٣) طعنه أحد اليهود بين ثدييه بحربة منها، ذكره أبو عمر .

والحارث بن حاطب، وقد شهد بدرا، رماه رجل من الحصن فدمغه(٤) .

وقد قتلنا منهم على الحصن عدة، كما قتلنا منهم رجلا حملوه حتى يدخلوه الحصن .

مصرع سلاّم بن مشكم :

وفى معارك حصون النطاة لقى سلاّم بن مشكم مصرعه، أثناء القتال وهو أحد سادات اليهود من بنى النضير، وزوج زينب بنت الحارث التى دست السم للنبى ﷺ فى الشاة بغية قتله ـ كما سيأتي ـ وبالرغم من إشارة المؤرخين إلى أن سلاّم بن مشكم كان القائد العام للقوات المحاربة فى منطقة النطاة التى شهدت أعنف المعارك بين المسلمين واليهود، وبالرغم من الإشارة إلى أن هذا القائد اليهودى قد لقى مصرعة في هذه المعارك، فإن أغلب المؤرخين لم يذكروا له دورا حربيا يذكر بالرغم من أنهم أكدوا أنه قتل فى معارك النطاة، إلا أن الواقدى قد أعطى تفسيرا لعدم مباشرة سلام بين مشكم القتال مثل غيره من قادة اليهود .. وهو أنه كان مريضا، وبالرغم من مرضه المقعد، لم يترك النطاة حتى قتل، مع أنه قد نصحه بأن يهرب إلى منطقة (الكتيبة) ليكون فى مأمن ؛ لأن خبراء اليهود كانوا يتوقعون أن أهل (الكتيبة) لن يقاتلوا المسلمين .

قال الواقدى : قال عبد الله : سألت إبراهيم بن جعفر عن قول زينب ابنة الحارث للنبى ﷺ : قتلت أبى، (٥) قال : قُتل يوم خيبر أبوها الحارث، وأشجع اليهود، وأخوه زبير قُتل يومئذ، فكان زوجها سيدهم وأشجعهم ـ سلاّم بن مشكم ـ مريضاً، وكان في

---

(١) الطبقات الكبرى : ٢ : ١٠٧ وقيل : أبو الصباح . انظر: مجمع الزوائد : ٦ : ١٥٥ .

(٢) القحف ـ بكسر أوله وسكون ثانيه ـ أحد أقحاف ثمانية تكوّن عُلية عظيمة هى الجمجمة، وفيها الدماغ. وما انفلق من الجمجمة فبان (المعجم الوسيط ـ قحف) .

(٣) الإصابة : ٤ : ٢٣٢ .

(٤) انظر : الطبقات الكبرى : ٢ : ١٠٧ .

(٥) انظر : مغازى الواقدى : ٢ : ٦٨ ، ووقع عند ابن سعد عن الواقدى بأسانيده المتعددة ـ كما نقل ابن حجر ـ أنها قالت : قتلت أبى وزوجى وعمى وأخى ، ونلت من قومى ما نلت : فتح البارى : ١٠ : ٢٤٦ .

حصون النطاة ، فقيل له: إنه لاقتال فيكم، فكن فى الكتيبة، قال: لاأفعل أبدا، فقُتل وهو مريض، وهو ـ أى سلاّم بن مشكم ـ أبو الحكم الذى يقول فيه الرّبيع ابن أبى الحُقيق :

ولما تداعوا بأسيافهم فكان الطعان دعونا سلاما
وكنا إذا مادعونا بـه سقينا سراة العدو السِّماما

وهو ـ أى سلاّم ـ صاحب حربهم ـ أى قائدهم الحربى الأعلى ـ ولكن الله شغله بالمرض.

انهزام اليهود :

وبالرغم من أن اليهود المدافعين عن حصن الصعب بن معاذ أغلقوا الأبواب عند تراجعهم أمام الحباب بن المنذر ورجاله، إلا أن الاضطراب قد عمّهم ، وأخذت معنوياتهم فى الانهيار، ولحظ ذلك قائد الجيش الإسلامى، فاغتنم فرصة اضطراب اليهود وتدنى معنوياتهم، فرسم فى الحال خطة عسكرية لاقتحام الحصن وفتحه .

وبموجب هذه الخطة شن القائد المسلم برجاله هجوما عاما خاطفا على الحصن، فاقتحموه وقاتلوا بضراوة حتى افتتحوه، واستولوا على كل ما فيه من معدات ثقيلة وأسلحة وغيرها، وكانت شيئا عظيما فرَّج الله به الضائقة التى كان يعانى منها الجيش الإسلامى..

وقد سقط قتلى كثيرون من اليهود الذين كانوا يدافعون ، كما وقع عدد منهم فى الأسر.

بداية النهاية :

وبسقوط هذا الحصن ظهر رجحان كفة المسلمين فى المعركة، وبدأ اليأس والجزع يتسربان إلى قلوب اليهود، وأخذت حالتهم المعنوية فى الضعف، بعد أن كانوا يتسربان إلى قلوب اليهود، وأخذت حالتهم المعنوية فى الضعف، بعد أن كانوا لايتصورون أن قواتهم، وهى الأكثر عددا وعدة، ستأخذ فى التقهقر أمام الجيش الإسلامى الذى لايزيد عدده على ألف وأربعمائة مقاتل ومائتى فارس ـ كما أسلفنا ـ مكشوفين فى العراء أمام أبراج اليهود المشحونة بآلاف الرماة .. ولكن الذى حدث كان مفاجأة مذهلة لهؤلاء اليهود وأنصارهم ، حيث تمكن الجيش الإسلامى من اقتحام هذين الحصنين اللذين كان اقتحامهما بداية نهاية مقاومة اليهود فى خيبر .

تطهير منطقة النطاة :

وتدل تقارير المؤرخين على أن هناك حصونا أخرى غير هذين الحصنين، إلا أنها ليست ذات أهمية من الناحية العسكرية.

ولهذا فإن وحدة الجيش الإسلامى قد بقيت فى منطقة النطاة للتفتيش فى هذه الحصون وتعقب مايمكن أن يكون مختبئا من المسلحين اليهود ثم القضاء عليهم .

قلعة الزبير :

وتوجه الجيش الإسلامى إلى فتح قلعة الزبير، الحصن الثالث من حصون النطاة الواقعة فى الشطر الأول من خيبر(١) .

وهذا الحصن منيع جداً، يقع على قمة جبل عالية صعبة المسالك وحسب خطة انسحاب اليهود جعلوا من هذه القلعة خط دفاعهم الثالث. ومن ثم شحنوا الأبراج بالمقاتلين ، ووضعوا كتائب الرماة فى مواضع تشرف على قوات المسلمين.

صعوبة الاقتحام :

وقام الجيش الإسلامى بعدة محاولات للاقتحام، ولكنهم لم يتمكنوا لأسباب عسكرية واضحة. ولم يقم اليهود أول الأمر بفتح الأبواب لمهاجمة المسلمين أو طلب مبارزتهم كما فعلوا أثناء حصار حصن «ناعم» وحصن « الصعب بن معاذ».

ويظهر أن ذلك راجع إلى اطمئنانهم إلى العلو الشاهق الذى يقع عليه هذا الحصن، وإلى أن الجيش الإسلامى لن يقدر على اقتحامه لصعوبة الوصول إليه وفتحه بقوة السلاح.

فتح الحصن :

قال الواقدى : لما تحولت اليهود من حصن ناعم وحصن الصعب بن معاذ إلى قلعة الزبير حاصرهم رسول الله ﷺ ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود يقال له « عزّال » فقال : ياأبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به من أهل النطاة، وتخرج إلى أهل الشق، فإن أهل الشق قد هلكوا رعبا منك، قال : فأمنه رسول الله ﷺ على أهله وماله ، فقال له اليهودى : إنك لو أقمت شهراً تحاصرهم مابالوا بك ، إن لهم تحت الأرض دُبولا ـ أى جداول ـ(٢) يخرجون بالليل فيشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم. فأمر رسول

(١) غزوة خبير : ٢٠٧ بتصرف ، وانظر : مغازى الواقدى : ٢ : ٦٦٦ .

(٢) المعجم الوسيط (دبل) .

الله ﷺ بقطع دُبولهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، وقتل من المسلمين يومئذ نفر، وأصيب من اليهود عشرة، وافتتحه رسول الله ﷺ (١)، وكان آخر حصون النطاة .

حصون الشق :

وبعد أن فقد اليهود حصون وقلاع النطاة، وخسروا كبار قادتهم فى تلك المعارك الضارية، تحولت فلولهم المدحورة إلى قلاع الشق . (٢)

وقد تمركزت قواتهم الرئيسة فى حصن أمامى يقال له « قلعة أبىّ» وتحصنوا فى هذه القلعة استعدادا لمقاومة الجيش الإسلامى الذى كان يتعقبهم فى زحفه.

ضرب الحصار على القلعة :

وكانت قلعة أبىّ قلعة منيعة للغاية ولكنها على كل حال ليست أحصن ولا أمنع من قلاع النطاة التى اقتحمها المسلمون ـ كما أسلفنا ـ بعد مراحل من أهوال القتال الضارى العنيف .

ولهذا لم يترددوا فى مهاجمتها بسرعة ، فقد قام الجيش الإسلامى بضرب الحصار على هذه القلعة، تمهيدا لاقتحامها، وكان الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بنفسه يدير دفة القتال.

فتح القلعة :

فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها « سموان » (٣) فقاتل عليها أشد القتال ، فخرج منهم رجل يقال له « عزول » فدعا إلى البراز، فبرز له الحباب بن المنذر ، فقطع يده اليمنى من نصف ذراعه ووقع السيف فى يده، وفر اليهودى راجعا ، فأتبعه الحباب، فقطع عرقوبه، وبرز منهم آخر، فقام إليه رجل من المسلمين ، فقتله اليهودى، فنهض إليه أبو دجانة فقتله وأخذ سلبه، وأحجموا عن البراز، فكبر المسلمون، ثم تحاملوا على الحصن فدخلوه، وأمامهم أبو دجانة، فوجدا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما، وهرب من كان فيه من المقاتلة، وتقحموا الجزر كأنهم الضباب حتى صاروا إلى حصن البزاة بالشق، وتمنعوا أشد الامتناع .

---

(١) البداية والنهاية : ٤ : ١٩٨.

(٢) غزوة خيبر : ٢١٧ ومابعدها بتصرف، وانظر : المرجع السابق .

(٣) البداية والنهاية : ٤ : ١٩٨.

حصن النزار :

وكان حصن « النزار» هو الحصن الثانى من حصون « الشق » والحصن الخامس والأخير من حصون القسم الأول من خيبر، والتى تحصن فيها اليهود وقاتلوا المسلمين.

وكان آخر أمل لهؤلاء اليهود معقودا على هذا الحصن فقد كان يجمع النساء والذرية؛ لأن قادة اليهود ـ بالرغم من قوة الحصون الأربعة ـ غير واثقين من قدرتها على الصمود طويلا أمام هجمات المسلمين، ولهذا جردوها للمقاتلين فقط، وأجلوا عنها النساء والصبيان .

ولكن هؤلاء اليهود لشدة ثقتهم بمناعة وحصانة وقوة حصن النزار، ولكونهم على ما يشبه اليقين عندهم بأن قوات الجيش الإسلامى ستعجز عن فتح هذا الحصن، وستضجر من طول المقام محاصرة له، دون أن تتمكن من فتحه، فتعود أدراجها، أو ستجبر على الدخول فى مفاوضة مع اليهود، وهم فى وضع من القوة يجعلهم يحصلون على شروط أفضل فى صلح يعقدونه مع المسلمين...

من أجل هذا كله شحن اليهود حصن النزار بأفضل ما لديهم من المحاربين، ثم جمعوا فيه النساء والذرية، وكانوا حوالى ألفين ، (١) ثم تحصنوا فى هذا الحصن أشد التحصن وامتنعوا فيه أشد الامتناع، وصاروا يدافعون عنه دفاع المستميت، لأنهم يدركون تمام الإدراك أن سقوط هذا الحصن فى أيدى المسلمين، يعنى سقوط الشطر الأول والأهم من خيبر، وبالتالى يعنى انهيار المقاومة اليهودية انهيارا كاملا، قد يجعلهم غير قادرين على الدفاع عن الشطر الثانى الذى لم يكن مستوى أهله كمستوى يهود الشق والنطاة ، من حيث الصبر على القتال، وقد كان قادة وزعماء اليهود فى الشطر الثانى من خيبر يعرفون هذا، وقد صرح به أحد قادتهم « كنانة بن أبى الحقيق النضرى » حيث قال عند سقوط آخر حصن من حصون النطاة والشق فى أيدى المسلمين: قد فرغ محمد من النطاة، وليس أحدها هنا يقاتل، قد قتلت يهود حيث قتل أهل النطاة(٢).

الهجوم على الحصن :

وفى منطقة الشق كانت حصون كثيرة، ولكن يظهر أن اليهود أخلوها وتجمعوا في حصن النزار لمناعته وقوة تحصينه، ثم هربوا جميعا بعد سقوطه إلى حصون الكتيبة فى

(١) انظر : إمتاع الأسماع : ٣١٨ .

(٢) مغازى الواقدى : ٢ : ٦٧٤ .

الشطر الثانى من خيبر . (١)

وبعد أن سقطت قلعة أبىّ ـ كما سبق ـ وانهزم المدافعون عنها إلى حصن النزار، سارع المسلمون إلى مطاردتهم ، فلم يتركوا لهم فرصة يستريحون فيها ، بل سارعوا إلى ضرب الخناق عليهم بقيادة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، وصاروا يضغطون عليهم ليستسلموا .

ولكن اليهود قاوموا مـن داخل الحصن، ولم يطلب أحد منهم المبارزة.. وكل مافعلوه هو أنهم شحنوا الأبراج بالرماة، واعتصموا داخل الحصن، وصاروا يسلطون الحجارة على المسلمين بغية إبعادهم عن الأسوار ..

وواضح أن الرماة من اليهود كانوا يركزون سهامهم على الموقع الذى يرابط فيه الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حول الحصن ، ومن ثم أصابت بعضها ثيابه ﷺ ، وهو يدير العمليات العسكرية ضدهم . (٢)

نصب المنجنيق :

ويدل سياق المؤرخين على أن يهود قلعة النزار قد صمدوا طويلا وصَدُّوا كل المحاولات التى قامت بها وحدات من مشاة الجيش الإسلامى لاقتحام الحصن وفتحه بقوة السلاح، وذلك راجع إلى تحصين القلعة ووعورة الوصول إليها، وعنادهم فى المقاومة. الأمر الذى جعل المسلمين يضيقون من طول المقام بدون نتيجة.

لذلك رأينا بعض الروايات التاريخية تفيد أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قرر استخدام آلات التدمير لضرب أبراج الحصن وأسواره لتدميرها وليتمكن مشاة المسلمين من الاقتحام، ولم يكن هناك مجال للخيل فى عمليات الهجوم، لعدم وجود أى طريق تستطيع الخيل سلوكه، ومن ثم كانت هجمات الجيش الإسلامى مقتصرة على وحدات من المشاة .

وكان المسلمون قد غنموا فى حصن الصعب بن معاذ فى النطاة بعض المنجنيقات، وبعض الدبابات، وفق اللغة العسكرية المناسبة للعصر الذى تجرى فيه هذه الأحداث .. ومن ثم أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق،(٣) لتدمير الحصن وإجبار اليهود على

---

(١) انظر : المرجع السابق : ٦٦٩ .
(٢) انظر : السيرة الحلبية : ٢ : ١٦٥، والبداية والنهاية : ٤ : ١٩٨ .
(٣) السيرة الحلبية : ٢ : ١٦٥ .

الاستسلام أو الانسحاب.

ومع تحدث بعض المؤرخين عن قصة نصب النبى ﷺ آلات المنجنيق على حصن النزار بعد أن استعصى فتحه، فإن أحدا منهم لم يذكر هل قذف النبى ﷺ هذا الحصن بقذائف هذه الآلات التدميرية أم لا ؟

ولاشك أن قتالا عنيفا دار بين الجيش الإسلامى ويهود حصن النزار داخل الحصن، بدليل أن اليهود انهزموا شر هزيمة، وتركوا للمسلمين غنائم كثيرة، وسواء قلنا بهذا أو بذاك فإن الأمر لا يترتب عليه خلاف حول النتيجة .. حيث استسلم اليهود .. وتم للجيش الإسلامى النصر على الشطر الأول من خيبر .

زحف الجيش الإسلامى :

وهنا توجه الجيش الإسلامى إلى الشطر الثاني ، الذى تحوّل إليه المنهزمون من الشطر الأول، والتحقوا بإخوانهم المتحصنين فى القلاع المنيعة، فى مقدمتها « القموص، والوطيح، وسلالم » .

« أما القموص » فقد فتحه علىّ رضى الله عنه ، (١) وهو أعظم حصون « الكتيبة » الذى منه سُبِيت صفية رضى الله عنها ..

وأما « الوطيح» و « سُلالم » فقد استسلم اليهود المعتصمون بهما بعد الحصار الشديد وبعد أن أيقنوا بالهلكة . (٢)

الاستسلام النهائى :

وذكر المؤرخون أن اليهود حينما حصرهم الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أربعة عشر يوما سألوه الصلح، حيث قرر كنانة بن أبى الحُقيق التسليم، وبعث إلى النبى ﷺ بوفد يطلب باسمه التفاوض، على أساس إنهاء الحرب بتسليم اليهود للمسلمين ، وكان «شماخ» رئيس الوفد .(٣)

وعندما خرج « شماخ » (٤) ـ رسول كنانة بن أبى الحقيق ـ من حصن القموص اعتقله الحرس النبوى .. ومن ثم أعلن استعداد يهود الشطر الثانى من خيبر للمفاوضة، وأن

---

(١) المواهب : ٢ : ٢٢٨ .

(٢) ابن هشام : ٢ : ٣٣٧ .

(٣) انظر : مغازى الواقدى : ٢ : ٦٧٠ .

(٤) غزوة خيبر : ٢٦٤ ومابعدها بتصرف .

ملك اليهود ــ كنانة ــ يرغب فى ذلك .. وأجيب إلى ذلك.. وهنا حاول كنانة ومن معه الحصول على شروط وضمانات مثل التى يحصل عليها أهل الذمة الذين يقبلون الدخول فى مفاوضات مع قائد الجيش الإسلامى قبل إعلان الحرب فيعقدون معه الصلح الذى بموجبه يكون لهم حق البقاء فى بلادهم مع الاحتفاظ بأموالهم وممتلكاتهم ، وإعفاء النساء والذرارى من السبى وحقن دماء الجميع، مقابل الجزية، مع الاعتراف بسلطان الإسلام ، وأن يعيشوا لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

بيد أن هذا الاستعداد جاء متأخرا .. ذلك أنهم لم يبدوا استعدادهم للتسليم على أساس الصلح، إلا بعد أن قاوموا أشد المقاومة ، وامتنعوا بحصونهم، وحاربوا المسلمين ــ كما أسلفنا ــ وقاوموهم إلى درجة كبيرة جعلت اقتحام حصونهم صعبا، بالرغم من المحاولات الهجومية التى استمرت حوالى نصف شهر.. الأمر الذى جعلنا نرجح الروايات التاريخية التى تقرر نصب المنجنيق ــ كما سبق ــ لضرب أبراج الحصون وأسوارها، ليسهل على المسلمين اقتحامها، وهذا جعل كنانة بن أبى الحقيق والمدافعين عن هذه الحصون يوقنون بالهلاك، ويفكرون فى المفاوضة والتسليم، بعد أن تأكدوا أن مقاومتهم لن تجدى نفعا إذا ما تمكنت تلك القوة من تدمير أبراج وأسوار الحصون التى امتنع فيها هؤلاء اليهود وقرروا محاربة المسلمين حتى النهاية.

وعلى كل حال ــ سواء قلنا بهذه الرواية التاريخية أو لم نقل ــ كما سبق ــ فإن اليهود قد استسلموا الاستسلام النهائى .

تسامح الرسول ﷺ :

ومع كل هذا العداء اليهودى ــ كما عرفنا ــ فإن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ قد تسامح مع هؤلاء اليهود ، حيث أبرم معهم اتفاقية، أهم ما حصلوا عليه فيها (حقن دمائهم وإعفاء نسائهم وذراريهم من السبى) وهو أمر ماكانوا ليظفروا به لولا روح التسامح التى عاملهم بها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ .

معالم اتفاقية التسليم :

ويمكن تلخيص معالم الاتفاق النهائى فيما يلى :

أولا : على اليهود أن يُخلوا جميع القلاع والحصون، ويتركوا كل مافيها من آلات حربية وأسلحة، ليستولى عليها الجيش الإسلامى لتصبح جزءا من مغانم هذه الغزوة.

ثانيـــا : على اليهود أن يسلموا للمسلمين كل ما فى حوزتهم من أسلحة وألا يحملوا سلاحا ماداموا فى خيبر .

ثالثـــا : يتعهد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بحقن دماء هؤلاد اليهود ويعفى نساءهم وأطفالهم من الاسترقاق.

رابعـــا : على اليهود أن يجلوا عن خيبر ويغادروها إلى الشام .

خامسا : يسمح المسلمون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ماحملت ركابهم.

سادسا : يتعهد اليهود ـ وعلى رأسهم سيدهم كنانة بن أبى الحقيق ـ أن يدلّوا المسلمين على جميع الأموال ، بما فى ذلك الكنوز المخفية ويسلموها للفاتحين.

سابعا : يوافق اليهود على أن لاذمة لهم، وأن المسلمين فى حل من كل التزامات هذه الاتفاقية، وأن دماء اليهود وأموالهم حلال للمسلمين إذا ماخالفوا شيئا مما اتفق عليه، أو غيبوا أو كتموا شيئا مما يجب أن يظهروه .

هكذا فتحت خيبر:

تلك هى معالم اتفاقية التسليم النهائى، كما جاءت فى روايات كثيرة.. وهكذا فتحت خيبر ..

وهنا نذكر مارواه الشيخان وغيرهما عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

قسم رسول اللّه ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين، وللراجل سهما، قال: فسَّره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فسهم .(١)

وفى رواية للبخارى عن زيد عن أبيه أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول: أما والذى نفسى بيده ! لولا أن أترك آخر الناس ببّانا، ليس لهم شيء، مافُتحت علىّ قرية إلا قسمتها كما قسم النبى ﷺ خيبر ، ولكنى

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٢٢٨) ، ومسلم : ٣٢ ـ الجهاد ٥٧ (١٧٦٢)، وأبو داود (٢٧٣٣)، والترمذى (١٥٥٤)، وابن ماجه (٢٨٥٤)، والدارمى : ٢ : ٢٢٥ ـ ٢٢٦، وأحمد : ٢ : ٢ ، ٦٢، ٧٢، ٨٠ .

أتركها خزانة لهم يقتسمونها . (١)

ورواه ـ أيضا ـ أبو داود عن عمر قال : لولا آخر المسلمين، ما فتحت عليّ قرية إلا قسمتها كما قسم النبى ﷺ خيبر (٢)

قال ابن كثير : وهذا السياق يقتضى أن خيبر بكمالها قسمت بين الغانمين .(٣)

وروى أبو داود عن ابن شهاب قال بلغنى أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة بعد القتال، ونزل من نزل من أجلها على الجلاء بعد القتال.

وفى رواية قال : خمّس رسول الله ﷺ خيبر ، ثم قسم سائرها على من شهدها ومن غاب عنها من أهل الحديبية . (٤)

وفى رواية له عن الزهرى أيضا أن سعيد بن المسيّب أخبره (٥) أن رسول الله ﷺ افتتح خيبر عنوة.

قال أبو داود : وقرئ على الحارث بن مسكين وأنا شاهد : أخبركم ابن وهب قال : حدثنى مالك عن ابن شهاب : أن خيبر كان بعضها عنوة وبعضها صلحا، والكتيبة أكثرها

---

(١) البخارى : ٦٤ المغازى (٤٢٣٥) وقوله « ببّانا » قال ابن حجر كذا للأكثر ـ بموحدتين مفتوحتين ، الثانية ثقيلة، وبعد الألف نون ـ قال أبو عبيدة بعد أن أخرجه عن ابن مهدى : قال ابن مهدى : يعنى شيئا واحدا ، قال الخطابى: ولا أحسب هذه اللفظة عربية، ولم أسمعها فى غير هذا الحديث. وقال الأزهرى : بل هى لغة صحيحة ، لكنها غير فاشية فى لغة معد، وقد صححها صاحب العين وقال : ضوعفت حروفه . وقال الببّان: المعدم الذى لاشىء له، ويقال : هم على بيان واحد ، أى على طريقة واحدة، وقال ابن فارس : يقال هم ببان واحد ، أى شىء واحد. قال الطبرى : الببّان فى المعدم الذى لاشىء له، فالمعنى لولا أن أتركهم فقراء معدمين لاشىء لهم، أى متساويين فى الفقر. وقال أبو سعيد الضرير فيما تعقبه على أبى عبيد : صوابه بيانا ـ بالموحدة ثم تحتانية بدل الموحدة الثانية ـ أى شيئا واحد ، فإنهم قالوا لمن لا يعرف! هو هيان بن بيان . قلت : وقد وقع من عمر ذكرهذه الكلمة فى قصة أخرى، وهو أنه كان يفضل فى القسمة فقال : « لئن عشت لأجعلن الناس ببّانا واحدا» ذكره الجوهرى. وهو مما يؤيد تفسيرها بالتسوية. وروى الدارقطنى فى « غرائب مالك » من طريق معن بن عيسى عن مالك بسند حديث الباب عن عمر قال: « لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم » .. ونقل صاحب « المطالع » عن أهل العربية أنه لم يلتق حرفا من جنس واحد فى اللسان العربى ، وتعقب بأن ذلك لا يعرف عن أحد من النحويين ولا اللغة ،وقد ذكر سيبويه الببر ـ بموحدة مفتوحة ثم ساكنة ـ وهى دابة تعادى الأسد، وفى الأعلام «ببة» بموحدتين الثانية ثقيلة ، لقب عبد الله بن الحارث الهاشمى أمير الكوفة . فتح البارى : ٧ : ٤٩٠ .

(٢) البخارى : ٦٤ـ المغازى (٤٢٣٦)، وأبو داود (٣٠٠٤) عون المعبود.

(٣) البداية والنهاية : ٤ : ٢٠١ .

(٤) أبو داود (٣٠٠٢ ، ٣٠٠٣) عون المعبود .

(٥) المرجع السابق (٣٠٠١) وهو مرسل .

عنوة وفيها صلح . قلت لمالك : وما الكُتَيبة ؟ قال : أرض خيبر وهى أربعون ألف عَذْق.

وفى رواية عن عبيد الله بن عمر قال: أحسبه عن نافع عن ابن عمر: أن النبى ﷺ قاتل أهل خيبر فغلب على الأرض والنخل [على النخل والأرض] وألجأهم إلى قصرهم فصالحوه على أن لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة، ولهم ماحَملت ركابهم، على أن يكتموا ولا يفوِّتوا شيئا، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيّبوا مسْكاً لحيىٍّ بن أخطب، وقد كان قتل قبل خيبر ، كان احتمله معه يوم بنى النضير، حين أجليت النضير فيه حليهم. وقال : فقال النبى ﷺ لسعية:

« **أينْ مَسْك حيّى بن أخطب ؟** » .

قال : أذهبته الحروب والنفقات، فوجدوا المسك، فقُتل بن أبى الحُقيق، وسبى نساؤهم وذراريهم ، وأراد أن يجليهم، فقالوا : يامحمد، دعنا نعمل فى هذه الأرض ، ولنا الشطر مابدالك، ولكم الشطر .. الحديث (١)

وزاد البلاذرى فيه : (٢) قال : فدفع رسول الله ﷺ سعية بن عمرو إلى الزبير، فمسّه بعذاب، فقال : رأيت حيّاً يطوف فى هذه الخِربة، ففتَّشوها، فوجدوا المسك. فقتل النبى ﷺ ابنى أبى الحُقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى نساءهم وذراريهم، وقسم أموالهم، للنكث الذى نكثوا، ففى هذا أنها فتحت صلحا، وأن الصلح انتقض ، فصارت عنوة، ثم خمسها رسول الله ﷺ وقسمها .

وفى رواية بشير بن يسار المرسلة : أنه عليه السلام عزل شطرها ثمانية عشر سهما لنوائب المسلمين، فكان منها: الوطيح، والسلالم والكتيبة التى كان بعضها صلحا وبعضها عنوة وقد تكون غلب عليها حكم الصلح، فلذلك لم يقسم فيما قسم بين الغانمين، والوطيح والسلالم، لم يجر لهما ذكر صريح فى العنوة، فصار هذا القول قويا .

قال أبو الفتح : ويترجح ما قاله موسى بن عقبة وغيره : إن بعض خيبر كان صلحا... وذكر مارواه أبو داود فى الرواية السابقة عن الزهرى أن خيبر كان بعضها عنوة وبعضها صلحا .. (٣)

---

(١) المرجع السابق (٢٩٩٠) والحديث سكت عنه المنذرى .

(٢) نصب الراية : ٣ : ٤٠٠ .

(٣) المرجع السابق : ٣٩٩ ، وانظر : زاد المعاد : ٣ : ٣٢٨ .

قال ابن القيم [١] : قسم رسول الله ﷺ خيبر على ستة وثلاثين سهما، جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم ، فكان لرسول ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك ، وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم، لنوائبه ومانزل به من أمور المسلمين .

وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم، لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية، من شهد منهم ومن غاب عنها، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر ابن عبد الله ، فقسم له ﷺ كسهم من حضرها، وقسم للفارس ثلاثة سهام وللراجل سهما وكانوا ألفا وأربعمائة فارس وفيهم مائتا فارس، وهذا هو الصحيح .

قال البيهقى : إن خيبر فتح شطرها عنوة وشطرها صلحا، فقسم مافتح عنوة بين أهل الخمس والغانمين ، وعزل مافتح صلحا، لنوائبه ومايحتاج إليه من أمور المسلمين .

قال ابن القيم : وهذا بناء منه على أن أصل الشافعى أنه يجب قسم الأرض المفتوحة عنوة، كما تقسم الغنائم، فلما لم يجد قسم الشطر من خيبر ، قال : إنه فتح صلحا.

ومن تأمل السير والمغازى حق التأمل تبين له أن خيبر إنما فتحت عنوة، وأن رسول الله ﷺ استولى على أرضها كلها بالسيف عنوة ولوشىء منها فتح صلحا لم يجلهم رسول الله ﷺ منها ، فإنه لما عزم على إخراجهم منها قالوا: نحن أعلم بالأرض منكم، دعونا فيها ونعمرها لكم بشطر مايخرج منها، وهذا صريح جدا فى أنها فتحت عنوة. وقد حصل بين اليهود والمسلمين من الحرب والمبارزة والقتل بين الفريقين ماهو معلوم، ولكنهم لما ألجئوا إلى حصنهم نزلوا على الصلح الذى ذكر أن لرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء والحلقة والسلاح، ولهم رقابهم وذريتهم ويجلوا عن الأرض، فهذا كان الصلح، ولم يقع بينهم صلح : أن شيئا من أرض خيبر لليهود، ولا جرى ذلك ألبتة، ولو كان كذلك لم يقل فيما رواه الشيخان عن ابن عمر رضى الله عنهما :

« **نقركم بها على ذلك ما شئنا** »

فقرّوا بها حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء . [٢]

---

(١) عون المعبود : ٨ : ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

(٢) البخارى : ٤١ ـ المزارعة (٢٣٣٨)، ومسلم : ٢٢ ـ المساقاة ٦ (١٥٥١) .

فكيف يقرهم على أرضهم ما شاء أولا، وكان عمر أجلاهم كلهم من الأرض ولم يصالحهم أيضا ، على أن الأرض للمسلمين ، وعليها خراج يؤخذ منهم ، هذا لم يقع ، فإنه لم يضرب على خيبر خراجا ألبتة.

فالصواب الذى لا شك فيه أنها فتحت عنوة ، والإمام مخير فى أرض العنوة بين قسمها ووقفها، وقسم بعضها ووقف البعض، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة ، فقسم قريظة والنضير ، ولم يقسم مكة وقسم شطر خيبر وترك شطرها .

نهاية الطاغوت اليهودى :

وبسقوط منطقة خيبر (١) فى أيدى المسلمين انهار آخر وأقوى معقل لطاغوت اليهود الدخيل الزنيم فى جزيرة العرب.. هذا الطاغوت اليهودى الذى دام فى المدينة وخيبر بصفة خاصة مدة طويلة قبل الرسالة والرسول ﷺ ، والذى ظل طيلة هذه المدة مصدر الشرور والفتن والقلاقل والحروب الأهلية الطاحنة بين العرب ، تلك التى دأب اليهود بأساليبهم التقليدية الشريرة على إثارتها وتغذية أسبابها للتمكين لوجودهم فى بلاد العرب كأقلية دخيلة لايمكنها الاستقرار والبقاء فى أرض غير أرضها، وبين شعب هى غريبة عنه جنسا ولغة ودينا ولحما ودما، إلا باستمرار التخاصم والتناحر والتفرق والتعادى بين عناصر هذا الشعب والعمل على تصعيد أسباب الخلاف الدامى بين مختلف فئات هذا الشعب، الذى لو توحّد وتخلّت عناصره ذات القوة الذاتية عن مساوئ التخاصم الجاهلى والتنافر القبلى ، لما استطاع هؤلاء اليهود الدخلاء، أن يجدوا موطئ قدم فى جزيرة العرب ، ولا اضطروا إلى العودة من حيث أتوا ، وهو ماحدث لهم مرغمين بالفعل بعد أن توحدت هذه الأمة تحت راية التوحيد ..

ما أشبه الليلة بالبارحة :

فهل يتقى الله هؤلاء الذين يحملون شعارات القومية والعروبة وهم بعيدون عن حقيقة الإسلام ؟ !

وهلى يتقى الله هؤلاء الذين يعملون على زيادة تمزيق وحدة الأمة تحت راية تلك الشعارات البراقة ؟ !

إن الوجود اليهودى الزنيم الدخيل فى فلسطين ، لا يستمد بقاءه من قوته الذاتية مهما

---

(١) غزوة خيبر : ٢٦٨ وما بعدها بتصرف .

تعددت وتنوعت وتفوقت، بقدر ما يستمد بقاءه البغيض من تمزيق وحدة هذه الأمة واختلاف الكلمة ، وكيد بعضهم لبعض .. وما أشبه الليلة بالبارحة..

وعلينا أن نتصور قوة الجيش الاسلامى الذى نصره الله على اليهود فى التجمع تحت راية العقيدة والأخوة فى الله.. وأن ندرك أن معالم النصر فى عصرنا وإلى أن تقوم الساعة هى معالم النصر التى أبصرنا فى تلك المعارك ..

الرسول القائد:

وهل آن لنا أن تجد هذه الدراسات العسكرية والمعارك التى قادها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وعمل فيها بكل مبادئ الحرب المعروفة ـ كما يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب ـ[١] بالإضافة إلى مزاياه الشخصية الأخرى فى القيادة ـ كما عرفنا ـ هل آن لنا أن تجد هذه الدراسـت العسكرية سبيلها إلى الكليات الحربية فى البلاد الإسلامية؟.

إن المسلم حقا ، هو الذى يقدّر الرسول الحبيب المحبوب ﷺ حق قدره ، فيعترف بأن كفاية الرسول ﷺ قائدا متميزا، وكفاية أصحابه رضى الله عنهم جنودا متميزين، هى التى أمّنت لهم النصر العظيم ..

أما أن نستند على الخوارق وحدها فى الحرب، ونجعلها السبب المباشر لانتصار المسلمين، فذلك يجعل النصر لاقيمة له من الناحية العسكرية، بالإضافة إلى مخالفة الأمر بالأخذ بالأسباب ـ كما أسلفنا ـ وإعداد القوة ما استطعنا إلى ذلك سبيلا ..

إن أعمال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ، ومنها العسكرية، سنة متبعة فى كل زمان ومكان، فهل يبقى أتباعه ينتظرون الخوارق، لينتصروا على أعدائهم، أم يعدّون ما استطاعوا من قوة ، لينالوا هذا النصر ؟

إن سيرة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ العسكرية، تثبت بشكل جازم حاسم لايتطرق إليه الشك، أن انتصاره ـ من الناحية البشرية ـ كان لشجاعته الشخصية، وسيطرته على أعصابه فى أحلك المواقف ولقراراته السريعة الجازمة الحاسمة فى أخطر الظروف ، ولعزمه الأكيد فى التشبث بأسباب النصر ، ولتطبيقه كل مبادئ الحروب المعروفة فى كل معاركه، تلك العوامل الشخصية التى جعلته يتفوق على أعدائه فى الميدان. .

---

(١) الرسول القائد : مقدمة ، بتصرف .

ويمتاز الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عن غيره من القادة في كل زمان ومكان بميزتين مهمتين:

الأولى : أنه كان قائدا عصاميا.

والثانية : أن معاركه كانت للدفاع عن الدعوة، ولحماية حرية نشر الإسلام، ولتوطيد أركان السلام، لاللعدوان والاغتصاب والاستغلال.

وعلى ذلك يمكن تقسيم حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ من الناحية العسكرية إلى أربعة أدوار :

دور الحشد.

ودور الدفاع عن العقيدة .

ودور الهجوم.

ودور التكامل .

وبهذا التطور المنطقى، تدرج هذا القائد العصامى بقواته من الضعف إلى القوة ، ومن الدفاع إلى الهجوم ، ومن الهجوم إلى التعّرض وبذلك بزّ كل قائد فى كل أدوار التاريخ، لأنه أوجد قوة كبيرة ذات عقيدة واحدة وهدف واحد من لاشىء ..

تلك هى الميزة الأولى للرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ..

والميزة الثانية لقيادته : هى أن معاركه كانت حرب فروسية بكل معانى الكلمة، الغرض منها حماية نشر الإسلام ، وتوطيد أركان السلام فلم ينقض عهدا، ولم يمثّل بعدو، ولم يقتل ضعيفا، ولم يقاتل غير المحاربين..

وإن مهمة القائد فى العصور السابقة كانت أصعب من مهمته فى العصر الحديث ـ كما رأينا فى هذه المعارك بين المسلمين واليهود ـ لأن سيطرة القائد ومزاياه الشخصية، كانت العامل الحاسم فى تلك الحروب بينما يسيطر القائد فى الحروب الحديثة على قواته بمقاومة عدد ضخم من ضباط الركن الذين يعاونونه فى مهمته، ويراقبون تنفيذ أوامره فى الوقت والمكان المطلوبين، كما يسيطر القائد على قواته بواسطة المواصلات الداخلية الدقيقة من أجهزة لاسلكية وسلكية ورادار وطيارات وأقمار صناعية ووسائط آلية ..

بل إن هيئات الركن مسئولة حتى عن تهيئة خطط القتال قبل الوقت المناسب ، ولايقوم القائد إلا بمهمة الإشراف على التنفيذ ..

إن القائد فى الحرب الحديثة يحتاج إلى العقل وحده، والقائد فى الحروب القديمة يحتاج إلى العقل والشجاعة .. ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسات العسكرية لجنودنا فى الكليات الحربية حتى ينصرنا الله على اليهود .

النبى ﷺ يعيد التوراة لليهود :

وعند إحصاء الغنائم فى خيبر وجد المسلمون من بينها صحائف من التوراة، وقد طلب هؤلاء اليهود من الرسول ﷺ أن يعيد إليهم تلك الصحائف ، فاستجاب لطلبهم ـ رغم ما فيها من التحريف والتزييف كما أسلفنا ـ وأمر بإعادتها إليهم فأعيدت. (١)

وفى إعادة صحائف التوراة إلى اليهود البرهان الذى يُلقم متهمى الإسلام بالتعصب ومصادرة غير المسلمين فى معتقداتهم وإجبارهم اعتناق الدين القيم يلقمهم حجرا .

فإعادة تلك الصحائف إلى اليهود ـ (٢) وخاصة فى ذلك الوقت الذى انتهى فيه الطاغوت اليهودى عسكريا كما أسلفنا ـ الدليل العملى على تسامح الإسلام، وإطلاقه الحريات لمن يخالفه فى العقيدة ، فى عصر بلغ فيه التعصب الأعمى للدين والمذهب بين الأمم الأخرى ـ كالرومان ـ إلى أن أباحوا لأنفسهم سفك دم الذين يخالفونهم فى المذهب، داخل إطار الدين الواحد، كما فعل حكام الروم البيزنطية بيعاقبة النصارى فى مصر. فكيف بمن يخالفهم فى جوهر الدين ذاته ؟! وأين تصرفات المسلمين الفاتحين المنتصرين المتسامحين بإطلاقهم الحريات لمخالفيهم فى الدين، ليمارسوا شعائرهم فى ظل الدولة الإسلامية كما يريدون ، من تصرفات الصليبيين الذين أعماهم الحقد والتعصب ؟ فلم يكتفوا بمصادرة حرية المسلمين فى ممارسه شعائر دينهم، بل لجأوا إلى تخييرهم بين أمرين :

إما قتلهم وتحريقهم بالنار !.

وإما مفارقة الإسلام واعتناق النصرانية !

كما حدث من الملك « فرديناند» والملكة « إيزابيلا » فى الأندلس « إسبانيا » عندما كُتبت لهم الغلبة هناك ، فأقاموا لهم محاكم التفتيش الوحشية التى نفذت حكم الإعدام

---

(١) انظر : السيرة الحلبية : ٢: ١٦٦ .

(٢) غزوة خيبر : ٢٧٣ بتصرف .

ـ ضربا بالسيف وحرقا بالنار ـ فى مئات الآلاف من المسلمين ..

وكما حدث من ملك الصليبيين « قلب الأسد » عندما ذبح ثلاثة آلاف مسلم من أسرى المسلمين، بالرغم من إعطائهم الأمان، عند استيلائه على مدينة القدس، التى استعادها منه صلاح الدين بقوة السلاح، والذى لم يقتل أسيرا مسيحيا واحدا، بالرغم من تلك المجازر التى ارتكبها الصليبيون على يد « قلب الأسد» الإنكليزى .. وقد بلغ التسامح الإسلامى بصلاح الدين إلى أن يعوده وهو فى مرضه، ويأمر طبيبه بمعالجته حتى شفى من مرضه، كما تشهد بذلك مصادر التاريخ الغربى فى أوربا قبل الشرق فى بلاد الإسلام.

اعتراف ولفنسون :

ويعترف ولفنسون بأن الرسول أجاب اليهود إلى طلبهم، بعدما أيقنوا بالهلكة، حيث طلبوا أن يُجليهم عن المنطقه، وأن يحقن دماءهم، ولكنهم بعد ذلك عرضوا عليه أن يبقيهم فى الأرض، لقاء شطر ما يخرج منها، فوافق الرسول على العرض، إجابة لطلبهم، ورغبة فى الإفادة من أية طاقة فى إعمار الأراضى واستثمارها، إلا أنه بين لهم أن موافقته غير ملزمة إلى الأبد .. لما يعرفه عن طبع اليهود، من عدمَ الوفاء بالعهد، ومن انتهاز أية فرصة تسنح للغدر والخيانة!

ويزيد ولفنسون مسألة يهود خيبر وضوحا فيبين أن خيبر كانت واسعة الأطراف .. ومادامت شوكة اليهود فى الحجاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود خيبر فى أراضيهم . (١).

ويمضى ولفنسون فى حديثه فيقول:

وهناك أمر يستوقف النظر، وهو أنه كان بين الغنائم التى غنمها المسلمون فى غزوة خيبر، صحائف متعددة من التوراة، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبى بتسليمها لهم... مما جعل اليهود يشيرون إلى النبى بالبنان، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم... ويذكرون بإزاء ذلك، ما فعله الرومان، حين تغلّبوا على أورشليم وفتحوها! إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا أيضا صحف التوراة!

هذا هو البون الشائع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام!

---

(١) تاريخ اليهود : ١٦٩ ومابعدها بتصرف .

لكن اليهود بعد قليل لم يذكروا هذه المواقف السمحة العادلة إزاءهم، وسعوا إلى الانتقام كلما سنحت الفرصة لذلك! ولم يكفهم أن الرسول الحبيب المحبوب ﷺ عاملهم على خيبر!

النبي ﷺ يتزوج صفية :

وكان من السبايا اللواتي وقعن في أيدى المسلمين، صفية بنت حييّ ابن أخطب، سيد بني النضير، كانت تحت سلاّم بن مشكم، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، فقتل كنانة يوم خيبر، (١) وكان سبب قتله ـ كما أسلفنا ـ ما أخرجه البيهقي بإسناد رجاله ثقات من حديث ابن عمر: أن النبي ﷺ لما ترك من ترك من أهل خيبر، على ألا يكتموه شيئا من أموالهم، فإن فعلوا فلاذمة لهم ولا عهد، قال فغيّبوا قسطا فيه مال وحليّ لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر، فسألهم عنه فقالوا: أذهبته النفقات، فقال : العهد قريب والمال أكثر من ذلك. قال: فوُجد بعد ذلك في خِربة، فقتل النبي ﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية. (٢) فصارت صفية مع السبي.

يروى مسلم عن أنس قال : كنت ردف أبي طلحة يوم خيبر. وقدمي تَمَسُّ قدَم رسول الله ﷺ قال: فأتيناهم حين بزغت الشمس وقد أخرجوا مواشِيَهُم وخرجوا بفؤوسهم ومكاتلهم ومُرورهم. فقالوا : محمد ، والخميس قال: وقال رسول الله ﷺ: (٣)

«خربت خيبر ! إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين».

قال : وهزمهم الله عز وجل. ووقعت في سهم دحية جارية جميلة. فاشتراها رسول الله ﷺ بسبعة أرؤس . ثم دفعها إلى أم سُلَيْم تَصنَّعها له وتهيَئها (قال: وأحسبه قال) وتعتدُّ في بيتها. وهي صفية بنت حييّ قال : وجعل رسول الله ﷺ وليمتها التمر والأقطِ والسَّمْن. فحصت الأرض أفاحيص. وجيء بالأنطاع. فوُضِعَتْ فيها. وجيء بالأقط والسَّمْن فشبع الناس. قال : وقال الناس : لاندرى أتزوجها أم اتخذها أُم ولد. قالوا: إن حجبها فهي امرأته، وإن لم يحجبها فهي أم ولد. فلما أراد أن يركب حجبها. فَقَعَدَتْ على عَجُزِ البعير فعرفوا أنه تزوجها. فلما دَنَوْا من المدينة دفع رسول الله ﷺ. ودفعْنا . قال : فَعَثَرَت الناقة العضْباء. وندر رسول الله ﷺ ونَدَرَتْ . فقام فَسَتَرَها. وقد أشرفت

---

(١) الإصابة: ٨: ١٢٦ (٦٤٧) .
(٢) فتح الباري : ٧: ٤٧٩ .
(٣) مسلم : ١٦ ـ النكاح ٨٧ (١٣٦٥) .

النساء . فقُلْن : أبْعَدَ اللهُ اليهودية.

قال : قلت: ياأبا حمزة! أَوَقَعَ رسول الله ﷺ؟ قال : **إى. والله! لقدْ وقع.**

وحديث زواج النبى ﷺ صفية رواه البخارى .. وغيره . (١)

وروى أبو داود وأحمد وصححه وابن حبان والحاكم من طريق أبى أحمد الزبيدى عن سفيان الثورى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة : كانت صفية من الصّفىّ ـ بفتح المهملة وكسر الفاء وتشديد التحتانية ـ فسّره محمد بن سيرين فيما أخرجه أبو داود بإسناد صحيح عنه قال: كان يضرب للنبى ﷺ بسهم مع المسلمين، والصفىّ يؤخذ له رأس من الخمس قبل كل شىء .

ومن طريق الشعبى قال: كان للنبى ﷺ سهم يدعى الصفى، إن شاء عبدا وإن شاء أمة، وإن شاء فرسا، يختاره من الخمس .

ومن طريق قتادة : كان النبى ﷺ إذا غزا كان له سهم صاف يأخذه من حيث شاء ، وكانت صفية من ذلك السهم.

وقيل: إن صفية كان اسمها قبل أن تسبى زينب. فلما صارت من السبى سميت صفية(٢) .

جاء فى المواهب: (٣) وإنما أخذ ﷺ صفية، لأنها بنت ملك من ملوكهم، فقد كان أبوها سيد بنى النضير، والملك يطلق على ذى السيادة والعظمة، كما فى قوله :

﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾(٤)

أى أصحاب حشم وخدم .. وليست مما توهب لدحية، لكثرة من كان فى الصحابة مثل دحية وفوقه، وقِلّة من كان في السبى مثل صفية فى نفاستها، نسبا وجمالا، فقد قالت أم سنان الأسلمية: كانت صفية من أضوأ مايكون من النساء . رواه ابن سعد. فلو خصه بها لأمكن تغيّر خاطر بعضهم، فكان من المصلحة العامة ارتجاعها منه، واختصاصه عليه الصلاة والسلام بها، فإن فى ذلك رضى الجميع رضى الله عنهم .. وقال مغلطاى وغيره :

---

(١) البخارى : ٦٤ ـ المغازى (٤٢١١ ، ٤٢١٢ ، ٤٢١٣) والإصابة : ٨: ١٢٦ ـ ١٢٧ ومجمع الزوائد : ٩: ٢٥٠ ـ٢٥٢ .

(٢) فتح البارى: ٧ : ٤٧٩ ـ ٤٨٠ . (٣) المواهب : ٢: ٢٣٢ ـ ٢٣٣ بتصرف .

(٤) المائدة : ٢٠ .

وكانت صفية قبل رأت القمر سقط فى حجرها فتُؤُوِّل بذلك .

يروى الطبرانى بسند رجاله رجال الصحيح عن ابن عُمر رضى الله عنهما قال:

كان بعينىْ صفية خضُرة، فقال لها النبى ﷺ :

« ما هذه الخضرة بعينيْكِ ؟»

قالت: قلت لزوجى : إنى رأيت فيما يرى النائم كأن قمراً وقع فى حجرى، فلطمنى وقال: أتريدين ملك يثرب. قالت : وماكان أبغض إلىّ من رسول الله ﷺ ، قَتَلَ أبى وزوجى، فمازال يعتذر إلىّ وقال:

« ياصفية، إن أباك ألّب علىّ العرب، وفَعَل وفَعَل »

حتى ذهب ذلك من نفسى (١)

ورواه أبو حاتم وابن حبان. (٢)

ويروى أحمد والترمذى بسند صحيح عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال:

بلغ صفية أن حفصة قالت : إنى ابنةُ يهودىّ، فبكتْ، فدخل عليها النبى ﷺ، وهى تبكِى، فقال :

«ماشأنك ؟ »

فقالت : قالت لى حفصة: إنى ابنة يهودى . فقال النبى ﷺ :

« إنك ابنـة نبى، وإن عمك لنبى، وإنك لتحت نبى، فبم تفخـر عليك؟»

فقال:

« اتق الله ! ياحفصة » (٣)

ونبصر من خلال هذا الزواج لهذة السيدة فى قومها، تلك التى أعتقها الرسول الحبيب المحبوب ﷺ وتزوجها، كما فى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه... (٤)

---

(١) مجمع الزوائد : ٩: ٢٥١ . (٢) المواهب: ٢: ٢٣٣ .

(١).أحمد : ٣: ١٣٥ ـ ١٣٦ والترمذى (٣٨٩٤)، وانظر: المواهب : ٣: ٢٥٥ ـ ومابعدها، والطبقات: ٨: ١٢٠ ـ ١٢٩، والاستيعاب : ٤: ١٨٧١ ـ ١٨٧٢، وأسد الغابة: ٥: ٤٩٠ ـ ٤٩١، وتهذيب التهذيب : ١٢: ٤٢٩،والمستدرك : ٤: ٢٨ ـ ٢٩ .

(٢) البخارى : ٦٧ ـ النكاح (٥٠٨٦) ، ومسلم : ١٦ ـ النكاح ٨٤ (١٣٦٥) .

شرف الغاية، ونبل المقصد ... كما نبصر وصل السبب بالأنبياء السابقين عليهم السلام .. فهل يفهم الحاقدون على الرسالة والرسول هذه الحقائق المشرقة، وتلك المقاصد النبيلة السامية، التى يحاولون طمسها بألوان قاتمة كالحة من الشكوك الباغية الظالمة ؟!

اليهود يقدمون شاة مسمومة للنبى ﷺ:

ومع كل هذا نجد اليهود يقدمون شاة مسمومة للرسول الحبيب المحبوب ﷺ ..

يرورى البخارى وغيره عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: لمّا فُتحت خيبر أُهْدِيت لرسول الله ﷺ شاة « فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ :

« اجمعوا لِى من كان ها هنا من اليهود »

فجُمعوا له ، فقال رسول الله ﷺ :

« إنّى سائلكم عن شىء، فهل أنتم صادقونى عنه ؟»

فقالوا: نعم يا أبا القاسم: فقال لهم رسول اللّه ﷺ:

« مَن أبوكم ؟»

قالوا: أبونا فلان. فقال رسول الله ﷺ :

« كذَبتم، بل أبوكم فلان »

فقالوا : صدَقْتَ وبرَرْت. فقال:

« هل أنتم صادقونى عن شىء إن سألتكم عنه ؟»

فقالوا : نعم ياأبا القاسم، وإن كذَبناك عرفْت كذبنا كما عرفته فى أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ :

« مَنْ أهل النار ؟»

فقالوا: نكون فيها يسيرا، ثم تخلُفوننا فيها. فقال لهم رسول ﷺ :

« اخسئوا فيها، والله ! لانخلُفكم فيها أبدا »

ثم قال لهم :

هل أنتم صادقونى عن شىء إن سألتكم عنه؟

قالوا: نعم. قال:

هل جعلتم فى هذه الشاة سما؟

فقالوا: نعم . فقال:

« **ماحمَلكم على ذلك؟** »

فقالوا: أردنـا إن كنت كاذبـا نستريح منك، وإن كنت نبيـا لم يَضُرّك»(١)

وفى رواية لمسلم عن أنس ، أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة. فأكل منها. فجيء بها إلى رسول الله ﷺ . فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردتُ لأقتلك . قال:

«**ماكان اللهُ ليسلّطك علىَ ذاك** »

قال: أو قال:

«**علىّ** »

قال : قالوا:

« **ألا نَقْتُلها ؟** »

قال:

« **لا** »

قال: فمازلت أعرفها فىَ لَهَوَات رسول الله ﷺ . (٢)

إنه العداء اليهودى الذى يعجز الخيال الشاخص عن تصوره .. فهل آن لأتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يدركوا ذلك ؟!

إنها حرب سافرة .. لا تقف عند حد .. حرب سافرة تحمل نذر بلاء وعذاب فى كل مايتصل بها .. ومن ثم يجب على أتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يستعدوا لمواجهة هؤلاء اليهود الجاحدين .. البغاة المفسدين .. الطغاة المجرمين .. حتى يتحقق فيهم قضاء الله بالتشتيت والمهانة فى هذه الدنيا، والتمزق فى وجوه الأرض ..

---

(١) البخارى : ٧٦ ـ الطب (٥٧٧٧)، والدارمى : ١: ٣٣ ـ ٣٤ وأحمد : ٢: ٤٥١ .

(٢) مسلم : ٣٩ ـ السلام ٤٥ (١٢٩٠).

قدوم مهاجرى الحبشة :

ووسط هذا الجو الذى تتابعت فيه الأحداث بهذه الصورة .. وعقب فتح خيبر .. قدم الذين هاجروا إلى الحبشة .. وقد سُرَّ الرسول الحبيب المحبوب ﷺ لمجيئهم بعد هذه الفترة الطويلة منذ رجب من السنة الخامسة من النبوة (١) وأمر الرسالة يعلو، وسلطان الإسلام يمتد شمال شبه الجزيرة وجنوبها، وعندما نزلوا بالمدينة قال الرسول الحبيب المحبوب ﷺ فيما يرويه الحاكم بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: لما قدم جعفر بن أبى طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ :

« **ما أدرى بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر** » (٢) .

وجعفر وإخوانه مكثوا فى الحبشة بضعة عشر عاما، نزل خلالها قرآن، ودارت معارك شتى مع هؤلاء اليهود وغيرهم.. وتقلّب المسلمون قبل الهجرة وبعدها فى أطوار متباينة.. ولم يمض كبير وقت على أولئك المهاجرين العائدين حتى انتظموا فى معارك القتال، مع من سبقوهم.

استسلام يهود فدك:

وكانت هناك عدة جيوب حول خيبر تنتظر نتائج المعركة .. منها يهود فدك. وقد اختلف المؤرخون فى كيفية استسلامهم للجيش الإسلامى .. فقيل : صالحوه على حقن دمائهم والجلاء وبخلوا بينه وبين الأموال، ففعل .. (٣)

وقال ابن إسحاق : فلما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما أو قع الله تعالى بأهل خيبر فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر، أو بالطائف، أو بعد ماقدم المدينة، فقبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف عليها بخيل ولاركاب. (٤)

---

(١) الفتح الربانى : ٢: ٢٢٤ .

(٢) المستدرك : ٢: ٦٢٤ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى.

(٣) انظر: المواهب: ٢ : ٢٤٨.

(٤) الروض الأنف : ٤: ٥٠، وانظر : الكامل فى التاريخ: ٢: ١٥٠، ١٥٢، وابن هشام : ٢: ٣٥٣، والسيرة الحلبية : ٢: ١٧٥، ومغازى الواقدى ٢: ٧٠٦ وانظر: المواهب: ٢: ٢٤٨.

فتح وادى القرى :

وكان اليهود فى وادى القرى وتيماء لا يتوقعون (١) أن تكون الغلبة للمسلمين على خيبر؛ لأنهم أهل عدد وعدة ومنعة وقوة، ولكن الذى حدث كان مفاجأة ليهود هذه الجيوب الذين سارع بعضهم ـ كما هى عادة اليهود ـ إلى الاستسلام حينما يواجهون القوة، وبعضهم دَفَع الجزية .. وقاوَمهم البعض الآخر، ولم يستسلم إلا بعد قتال كوادى القرى .

ويقع هذا الوادى بين خيبر والمدينة، وهو واد خصب، وبه مزارع عظيمة، وعيون كثيرة، وكانت تقطنه ـ عند فتح خيبرـ جماعة من اليهود، على جانب لايستهان به من القوة، ولهذا فقد كان يهود هذا الوادى هم الوحيدين من بين الفئات اليهودية التى رفضت ـ بعد سقوط خيبر ـ الاستسلام للجيش الإسلامى، وقرَّرت المقاومة بحد السلاح .. وقد كان يهود هذا الوادى ـ كيهود خيبر ـ يمتنعون بقلاع وحصون حربية، كما أنهم استغاثوا بجمع من الأعراب الوثنيين استعدادا لمواجهة المسلمين الذين كانوا فى طريقهم إلى وادى القرى من خيبر .

يقول ابن القيم: (٢) انصرف رسول الله ﷺ من خيبر إلى وادى القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب، فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمى، وهم على تعبئة، فَقُتل مِدْعَمٌ عبْد رسول الله ﷺ ، فقال الناس : هنيئاً له الجنة، فقال النبى ﷺ فيما يرويه الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

«خرجنا يوم خيبر، فلم نغنم ذهبا ولا فضة، إلا الأموال والثياب والمتاع، فأهدَى رجلٌ من بنى الضبيب، يقال له : رفاعة بن زيْد لرسول الله ﷺ غلاما يقال له: مِدْعَمٌ، فوجه رسول الله ﷺ إلى وادى القُرى حتى إذا كان بوادى القُرى ، بينما مِدْعَمٌ يَحُطُّ رحْلاً لرسول الله ﷺ إذا سهم عَائِرٌ فقتله، فقال الناس : هنيئا له الجنة، فقال رسول الله ﷺ :

«كلا . والذى نفسى بيده ! إن الشَّمْلَةَ التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم يُصبْها المقاسم، لتشتعل عليه نارا ».

فلما سمع ذلك الناس جاء رجل بشراك أو شراكيْن إلى النبى ﷺ فقال:

---

(١) غزوة خيبر : ٢٩١ ومابعدها بتصرف .

(٢) زاد المعاد: ٣: ٣٥٤ ومابعدها بتصرف .

« شراك من نار أو شراكان من نار » (١) .

فعبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصفهم ، ودفع لواءه إلى سعد ابن عُبادة، وراية إلى الحُباب بن المنذر، وراية إلى سَهل بن حُنْيف، وراية إلى عبَّاد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إن أسلموا، أحرزوا أموالهم، وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز إليه الزّبير بن العوام، فقتله، ثم برز آخرُ، فقتله، ثم برزآخر ، فبرز إليه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقتله، حتى قَتل منهم أحد عشر رجلا، كلما قُتل منهم رجلٌ، دعا من بقى إلى الإسلام، وكانت الصلاة تحضُر ذلك اليوم، فيُصلىّ بأصحابه، ثم يعود فيدعهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتَلهُم حتى أمْسوا، وغَدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعْطَوْا مابأيديهم، وفتحها عنوة، وغنّمه الله أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا، وأقام رسول الله ﷺ بوادى القُرى أربعة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القُرى، وترك الأرض والنخيل بأيدى اليهود ، وعاملهم عليها .

وباستسلام يهود وادى القرى (٢) تم القضاء على أقوى جيب من جيوب المقاومة اليهودية فى جزيرة العرب، كانت قد قاومت الجيش الإسلامى بعد سقوط خيبر :

يهود تيماء يدفعون الجزية:

وقدكانت تيماء الواقعة فى الركن الشمالى الغربى للجزيرة بها مجموعة من اليهود، وكانت لهم حصون فى قمم الجبال، وكان من المتوقع أن يبدوا شيئا من المقاومة، إلا أنه لما بلغهم استسلام خيبر، ثم فدك، ووادى القرى، للجيش الإسلامى، بعثوا من تلقاء أنفسهم إلى الرسول الحبيب المحبوب ﷺ يطلبون الصلح، ويعرضون دفع الجزية للمسلمين، فقبل، منهم النبى ﷺ الجزية، وترك لهم ما بأيديهم من أموال، فلم يستول المسلمون على شىء منها، لأنهم بدفعهم الجزية أصبحوا أهل ذمة، شأنهم غير شأن العدو المحارب الذى لم يستسلم إلا بعد قتال وحرب .. قال البلاذرى فأقاموا ببلادهم، وأرضهم فى أيديهم، وولاها رسول الله ﷺ يزيد بن أبى سفيان، وكان إسلامه يوم فتحها وروى أن عمر أجلى أهل فدك وخيبر وتيماء . (٣)

---

(١) البخارى : ٨٣ ـ الإيمان (٦٧٠٧) ، ومسلم : ١ ـ الإيمان ١٨٣ (١١٥)، ومالك : ٢١ ـ الجهاد (٢٥) وأبو داود (٢٧١١)، والنسائى : ٧: ٢٤ .

(٢) غزوة خيبر : ٢٩٧ ـ ٢٩٨ .

(٣) المواهب: ٢: ٢٤٨، وانظر : البداية : ٢: ٢١٨، والسيرة الحلبية : ٢: ١٨٣، وزاد المعاد: ٣: ٣٥٥ ، وإمتاع =

قصة الرهان:

والآن وقد عاد الرسول الحبيب المحبوب ﷺ بجيشه منتصرا من خيبر ذلك الانتصار الساحق الرائع ، الذى قضى على اليهود عسكريا .. فإننا نرى رجالات قريش ينظرون إلى نتائج معركة خيبر على أنها الفيصل القاطع فى الصراع الدائر بين الكفر والإيمان .. بين الحق والباطل .. وأنه على ضوء نتائج هذه المعركة ـ التى هى أعظم وأخطر معركة حربية يخوضها المسلمون فى حياة الرسول الحبيب المحبوب ﷺ ـ سيتقرر المصير النهائى لكل من المعسكرين .. لا فى خيبر وحدها، بل فى الجزيرة كلها . (١)

لأنه لا توجد فى جزيرة العرب ـ يومها ـ قوة تناوئ المسلمين أعظم من يهود خيبر وحلفائهم الغطفانيين، سواء من ناحية العدد والعدة أو من ناحية متانة وحصانة القلاع والحصون التى يعتصم بها اليهود فى خيبر ..

لذلك كان أهل مكة يترقبون بحساسية بالغة واهتمام شديد أنباء المعارك الدائرة فى خيبر. ولأهمية تلك المعارك كان الحديث عنها وعن نتائجها شغل قريش الشاغل فى أنديتها، وكثيرا مايدور الجدل فى تلك الأندية حول أىّ من الفريقين يكون له النصر فى هذه المعارك .. المسلمون أو اليهود ؟

قال موسى بن عقبة وغيره : (٢) وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ﷺ إلى خيبر تراهُنٌ عظيم، وتبايع، فمنهم من يقول: يظهر محمد وأصحابه ، ومنهم من يقول: يظهرالحليفان ويهود خيبر وكان الحجاج بن علاط السّلمى قد أسلم وشهد خيبر، وكانت تحته أم شيبة أخت بنى عبد الدار بن قصى ، وكان الحجاج مكثرا من المال كانت له معادن بأرض بنى سُليم، فلما ظهر النبى ﷺ على خيبر ، قال الحجاج بن علاط : إن لى ذهبا عند امرأتى، وإن تعلمْ هى وأهلها بإسلامى، فلا مال لى، فأذن لى، فلأسرع السَّير وأسبق الخبر، ولأخبرن أخبارا إذا قدمت أدرأ بها عن مالى ونفسى، فأذن له رسول الله ﷺ، فلما قدم مكة، قال لامرأته : أخفِى علىّ واجمعى ماكان لى عندك من مال ، فإننى أريد أن أشترى من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استبيحوُا، وأُصيبت أموالهم، وإن محمدا قد أسر، وتفرّق عنه أصحابه وإن اليهود قد أقسموا : لَتَبْعَثَنّ به إلى مكة، ثم لتقتُلنَّه

= الأسماع : ٣٣٢ ، ومغازى الواقدى : ٢ : ٧٠٩ ومابعدها، وابن هشام : ٢ : ٣٣٨ وابن سيد الناس : ٢ : ١٤٣ .

(١) غزوة خيبر : ٣٠١ ومابعدها بتصرف .

(٢) زاد المعاد : ٣٠ : ٣٣٧ ومابعدها بتصرف ، وانظر : البداية : ٤ : ٢١٥ ومابعدها .

بقتلاهم بالمدينة وفشا ذلك بمكة، واشتدّ على المسلمين، وبلغ منهم، وأظهر المشركون الفرح والسرور، فبلغ العباسَ عمَّ رسول الله ﷺ زَجَلَةُ الناس وجَلَبتهُم وإظهارُهُم السرور، فأراد أن يقوم ويخرج ، فانْخَزَل ظهرُه، فلم يقدر على القيام، فدعا ابناً له يقال له : قُثَمُ، وكان يشبه رسول الله ﷺ ، فجعل العباس يَرْتَجِزُ، ويرفعُ صوته، لئلا يشمتَ به أعداءُ الله:

حِبّى قُثَمْ حِبّى قُثَمْ   شبيهُ ذِي الأنْف الأشَمْ

نَبِىّ ربىّ ذِي النّعَم   بِرغْم أنفِ مَنْ رَغَمْ

وحُشر إلى باب داره رجال كثيرون من المسلمين والمشركين، منهم المظُهر للفرح والسرور، ومنهم الشّامِت المُغْرى ، ومنهم مَنْ به مثل الموت من الحزن والبلاء ، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتَجَلّدَه، طابت نفوسهم ، وظن المشركون أنه قد أتاه ما لم يأتهم، ثم أرسل العباس غلاما له إلى الحجاج، وقال له : اخلُ به، وقل له : ويلك ماجئت به، وما تقول، فو الذى وعد الله خيرٌ مما جئت به؟ فلما كلمه الغلام قال له: اقرأ على أبى الفضل السلام، وقل له: فَلْيَخْلُ بى فى بعض بيوته حتى آتيه فإن الخبر على ما يَسُرُّه، فلما بلغ العبد باب الدار، قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحا كأنه لم يُصبه بلاء قط، حتى جاءه وقبّل مابين عينيه، فأخبره بقول الحجاج ، فأعتقه ، ثم قال: أخبرنى . قال : يقول لك الحجاج. اخْلُ به فى بعض بُيوتك حتى يأتَيك ظهرا، فلما جاءه الحجاج، وخلا به، أخذ عليه لتكْتُمَنَّ خبَرى ، فوافقه عباس على ذلك فقال له الحجاج: جئتُ وقد افتتح رسول الله ﷺ خيبر، وغنم أموالهم وجرتْ فيها سهام الله، وإن رسول الله ﷺ قد اصطفى صفية بنت حيى لنفسه، وأعرس بها، ولكن جئت لمالى أردتُ أن أجمعه وأذهب به وإنى استأذنت رسول الله ﷺ أن أقول، فأذن لِى أن أقول ماشئت فأخْفِ علىّ ثلاثا، ثم اذكر ماشئتَ . قال: فجمعتْ له امرأته متاعه ، ثم انشمر راجعا، فلما كان بعد ثلاث ، أتى العباس امرأة الحجاج،فقال : مافعل زوجك ؟ قالت : ذهب، وقالت: لايحزُنْك الله يا أبا الفضل، لقد شقّ علينا الذى بلغك . فقال: أجل ،لايحْزُنُنى الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب، فتح الله على رسوله خيبر، وجرت فيها سهام الله واصطفى رسول الله ﷺ صفية لنفسه، فإن كان لك فى زوجِك حاجة فالحقى به . قالت : أظنك والله صادقا . قال: فإنى والله صادق، والأمر على ما أقول لك . قالت : فمن أخبرك بهذا؟ قال: الذى أخبرَك بما أخبرك، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، فلما رأوْه قالوا: هذا والله التجلُّد يا أبا الفضل،

ولا يُصيبك إلا خير. قال: أجل لم يُصبْنى إلا خير والحمدُ لله، أخِبَرنى الحجاج بكذا وكذا، وقد سألنى أن أكتُمَ عنه ثلاثا لحاجة، فردّ الله ماكان للمسلمين من كآبة وجزع على المشركين وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس، فأخبرهم الخبر، فأشرقت وجوه المسلمين.

أخرجه عبد الرزاق، وعند أحمد بسند صحيح، وذكره الهيثمى وزاد نسبته إلى البزار والطبرانى، ورجاله رجال الصحيح. (١)

حسان يهجو يهود خيبر :

وصدق حسان بن ثابت رضى الله عنه وهو يهجو يهود خيبر :

بئس ماقاتَلَتْ خيابر عمـــا ... جمعتْ من مزارعٍ ونخيـــلِ

كرِهُوا الموتَ فاستُبيح حماهُم ... وأَقَامُـوا فعْـل اللئيم الذليـلِ

أمِنَ الموت ترهبون؟ فإن المـ ... ـوْتَ موت الهُزال غير جميل(٢)

المسلمون واليهود وجها لوجه :

ويتضح مما سبق أنه لم يكن هناك ــ (٣) من وجهة النظر العسكرية المجردة ــ أى عامل مادى يتفوق به الجيش الإسلامى على اليهود .. بل يبدو واضحا أن هؤلاء اليهود فى خيبر كانوا فى وضع حربى ممتاز، يمكن القول معه ــ وحسب المقاييس العسكرية المادية المجردة ــ أن لديهم كل العوامل والأسباب التي يحتاجونها للانتصار على الجيش الإسلامى ، وأهم هذه العوامل والأسباب ما يلى :

أولا : التفوّق العددى .. فقد كان عدد قوات اليهود ــ كما عرفنا ــ أكثر من عدد قوات الجيش الإسلامى ، ويساندهم آلاف من حلفائهم .. ظلوا لهم كالاحتياطى ضد قوات الجيش الإسلامى، حتى انتهت معارك خيبر، بل حاولوا ضرب القوات الإسلامية من الخلف ، لحساب حلفائهم اليهود .

ثانيا : إزاء هذا العدد الهائل، كانت قوات الجيش الإسلامى لاتزيد على ألف وأربعمائة راجل ومائتى فارس ــ كما أسلفنا ــ وهذا يعنى أن التفوّق العددى لليهود تفوّق

---

(١) المصنف (٩٧٧١) وأحمد : ٣: ١٣٨ والمجمع : ٦: ١٥٤ .

(٢) ديوان حسان : ٢٠٥ . (٣) غزوة خيبر : ٣١٢ وما بعدها بتصرف .

هائل ، مما يجعل توقع الانتصار بالنسبة للمسلمين بعيدا وبالنسبة لليهود قريبا .

ثالثا : التفوق الساحق فى العتاد والسلاح ... فقد كان اليهود مع كثرتهم العددية الغامرة يتفوّقون على الجيش الإسلامى تفوّقا ساحقا حيث كان اليهود على غاية من جودة التسليح واستكمال عدة الحرب الدفاعية والهجومية .. وذلك لما تحت أيديهم من ثروات هائلة تمكنهم من الحصول على أى نوع من أنواع السلاح والعتاد .

رابعا : الاستراتيجية الممتازة التى كان يتمتع بها المحارب اليهودى فى خيبر .. فقد كان اليهود ـ مع تفوقهم العددى الساحق ووفرة العتاد لديهم وجودة التسليح بينهم ـ متحصنين داخل حصون وقلاع كبيرة منيعة ـ كما أسلفنا ـ بُنيت على قمم جبال وتلال حسب تخطيط عسكرى مدروس، بحيث يكاد يكون من المستحيل الإقدام على مهاجمتها، فضلا عن اقتحامها واقتتاحها، لأن هذه القلاع والحصون تقع فى مرتفعات عالية، وبها أبراج يكشف المرابطون فيها كل ماحواليها ويتمكنون من أن يصبّوا سهامهم القاتلة على كل من يقترب منها .

خامسا : وفرة المواد الغذائية .. فقد خزن اليهود فى قلاعهم وحصونهم ـ استعدادا للقتال ـ كميات هائلة من المواد الغذائية المختلفة.. تكفى لتموينهم عدة سنوات كما دل على ذلك إحصاء الغنائم التى غنمها المسلمون عند استيلائهم على هذه الحصون والقلاع.. أما الماء فقد كان متوافرا فى جميع الحصون والقلاع بصفة دائمة، الأمر الذى يمكّنهم من الاستمرار فى القتال سنوات عديدة .

سادسا : مكانة يهود خيبر من الناحية العسكرية .. فقد أثبت سير المعارك الضارية ـ كما أسلفنا ـ على مدى مكانتهم العسكرية وهم يدافعون عن حصونهم وقلاعهم .. ومن ثم رأينا بعض قادتهم قتلوا فى ساحة الحرب وبأيديهم السيوف .. مع أن ذلك ليس معهودا عن اليهود عبر تاريخهم ، حينما يواجهون مثل هذه المعارك.

سابعا : التعصب اليهودى.. فاليهود وإن كان فكرهم الدينى مدخولا ـ كما عرفنا ـ إلا أنهم يتعصبون له ، ومن ثم جعلوه فكرا دينيا عنصريا خاصا بهم وحدهم، لأنهم ـ كما يزعمون ـ شعب الله المختار .. وهو أمر يجعلهم لا يحتملون وجود أى فكر دينى إلى جانب فكرهم وانطلاق المحارب من مفهوم عقيدته، وإن كانت غير صحيحة، يجعله شديد العناد والضراوة فى قتاله ، وخاصة إذا كان فى مثل هذا المقام .

ثامنا : عامل الحفاظ على المال والزوجة والولد والجاه والسلطان .. فقد كان يهود خيبر يقاتلون وبينهم نساؤهم وأطفالهم، وهم أعز مايحافظ عليه الإنسان .. كذلك كان اليهود ذوى ثروات طائلة، وأموال عظيمة منقولة وغير منقولة.. كما أنهم فى خيبر لا ينازعهم منازع.. وكل هذه الأمور العزيزة لديهم ، يعلمون حق العلم ـ بموجب شرعة الحرب المعمول بها عالميا فى هذا العصر ـ أنهم سيفقدونها إذا ماتغلب عليهم المسلمون واحتلوا خيبر .. ولهذا كان من البدهى أن يكون قتال اليهود ـ تحت تأثير عوامل الحفاظ على كل هذه الأمور ـ قتالا عنيدا شرسا، لا هوادة فيه ، ولا تساهل .. وهو أمر يجعل مهمة المسلمين المهاجمين شاقة إلى أبعد الحدود، حيث واجه الجيش الإسلامى من يهود خيبر نوعا من القتال لم يشهد مثله فى الضراوة والشراسة فى أية معركة خاضها مع اليهود.

تاسعا : الجيش الإسلامى هو المهاجم .. والجيش اليهودى هو المدافع ..

ومن المعلوم عسكريا أن مهمة المهاجم أشق من مهمة المدافع . كما يتوجب ـ بدهيا ـ على من يريد القيام بهجوم فى حرب شاملة أن تكون قواته أكثر قوة من قوات عدوه . وإذا علمنا أن اليهود يتحصنون خلف أسوار وأبراج وحصون وقلاع منيعة، وأن عددهم أكثر من عدد المسلمين ـ كما عرفنا ـ أدركنا مدى الصعوبة الكبرى التى واجهها الجيش الإسلامى وهو يهاجم اليهود فى حصونهم وقلاعهم .

وأمام كل هذا التفوق فى العدد والعتاد والسلاح والاستراتيجية والتمتع بالمواقع الدفاعية الحصينة ، وتوفر كل العوامل المادية التى يحتاجونها ، لتحقيق النصر ، كان المسلمون فى المقابل على غير ذلك .

وهكذا فقد كان كل شىء ـ حسب المقاييس المادية والتقديرات العسكرية المجردة ـ يشير إلى أن يهود خيبر سيتمكنون ـ بكل سهولة ـ من دحر المسلمين والتغلب عليهم ، عندما يقومون بالهجوم ..

ولكن الذى حدث هو العكس .. وهو انتصار المسلمين القلة القليلة التى ينقصها كل شىء مادى على الكثرة اليهودية الغامرة التى توفرت لديها كل الإمكانات المادية لكسب النصر .

وقد كان ذلك مفاجأة مذهلة، أبطلت المقاييس العسكرية التقليدية.. وأثبتت عمليا أن القوة الحربية ـ مهما عظمت ـ ليست وحدها كافية لكسب النصر فى المعارك .

كما أثبت انتصار المسلمين على اليهود فى خيبر أن النقص في السلاح والعتاد، والقلة فى عدد الرجال لا يكونان ــ دائما وفى كل الأحوال ــ سببا فى الانهزام أو عدم تحقيق النصر المطلوب .

ولعلنا هنا ــ وعلى ضوء هذه الحقائق ــ لسنا بحاجة إلى أن نقول : إن العقيدة الإسلامية الراسخة التى كان المجاهد المسلم يلتزم بها ويقاتل ــ بصدق ووفاء ــ تحت لوائها، هى التى قلبت موازين القوى في معارك خيبر، وكانت العامل الحاسم الأول فى انتصار تلك القلة المسلمة على تلك الكثرة اليهودية الفاجرة التى تتفوق تفوقا ساحقا في كل شيء يحتاجه المحارب .

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة » :

وفى طيات تفاصيل معارك خيبر الحاسمة من نماذج البطولة والتضحية، وزخم العقيدة، وصدق الجهاد، وقوة الإيمان ، مايجب أن يتفهمه ويعيه ويجعله شعاعا يستضيء به على دروب الجهاد وصون الكرامات واستعادة الحقوق المسلوبة والأرض المغتصبة كل الذين تضع الأقدار فى أيديهم مسئولية حماية الأمة الإسلامية ، وغسل العار الذى لحق بها ولطخ جبينها، ودنّس مقدساتها، وأذل كرامتها بأيدى اليهود فى عالمنا المعاصر .

لقد التحم فى معارك خيبر ــ كما أسلفنا ــ عدد قليل من المسلمين بعدد هائل من اليهود يفوق عدد المسلمين بآلاف كثيرة .. فضلا عن العتاد الهائل والحصون المنيعة .. واستمرت المعارك كأعنف ما يكون .. وكان المسلمون مكشوفين أمام هذا العدد الهائل وتلك الاستعدادات الضخمة ..

ومع كل هذا وذاك كان النصر فى النهاية للمسلمين على اليهود .. وهذا دليل عملى قائم يؤكد أن التفوق الساحق فى العدد ووفرة السلاح وجودة التسليح والعلوم الحربية ــ التكنولوجيا ــ ليس وحده الذى يضمن النصر فى المعارك، وإنما الذى يضمن ذلك ويحققه ــ بالدرجة الأولى ــ رسوخ العقيدة الصادقة فى نفس المحارب، والسير فى دروب الكفاح على هدى نور هذه العقيدة قبل حشد الرجال وتكديس السلاح الذى لا قيمة حربية له إذا لم تحمله الأيادى المتوضئة التى يحركها قلب مليء بالإيمان بالله تعالى .. وصدق الله العظيم :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٢٤٩ .

هكذا ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾ .. بهذا التكثير (١) . فهذه هى القاعدة فى حس المؤمنين . القاعدة : أن تكون الفئة المؤمنة قليلة، لأنها هى التى ترتقى الدرج الشاق، حتى تنتهى إلى مرتبة الاصطفاء والاختيار .. ولكنها تكون الغالبة، لأنها تتصل بمصدر القوى ، ولأنها تمثل القوة الغالبة، قوة الله الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده، محطم الجبارين، ومخزى الظالمين من اليهود ومن على شاكلتهم ، وقاهر المتكبرين ..

• هم يكلون هذا النصر ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ ويعللونه بعلته الحقيقية : ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ • فيدلون بهذا كله على أنهم المختارون من الله لمعركة الحق الفاصلة بين الحق والباطل.

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ﴾:

ومن ثم أبصرنا الفئة القليلة في العدد والعدة من هؤلاء الصحابة الكرام يتوجهون إلى خيبر لملاقاة هؤلاء اليهود الذين هم أكثر عددا وعدة ــ كما أسلفنا ــ أبصرنا هذه الفئة المؤمنة المجاهدة الواثقة بوعد الله، التى تستمد صبرها كله من اليقين بهذا الوعد ، وتستمد قوتها كلها من إذن الله، وتستمد يقينها كله من الثقة فى وعد الله، وأنه مع الصابرين..

أبصرنا هذه الفئة المؤمنة الواثقة الصابرة الثابتة ، التى لم تزلزلها كثرة اليهود عددا وعدة ، مع ضعفها وقلتها ..

أبصرنا هذه الفئة ــ بهذه الصورة ــ هى التى تواجه اليهود فى عقر حصونهم .. وهى التى تقرر مصير المعركة مع هؤلاء اليهود ومن على شاكلتهم :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٢).

وكيف ينصر المؤمنون الله، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ماشرط لهم من النصر والتثبيت ؟

(١) فى ظلال القرآن : ١ : ٢٦٩ بتصرف .

(٢) محمد : ٧ ــ ١١ .

إن لله فى نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا : شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبقى فيها معه أحدا ولا شيئا ، وأن يكون الله أحب إليها من ذواتها ومن كل ماتحب وتهوى ، وأن تحكمه فى رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها.. فهذا نصر الله فى ذوات النفوس .. فهل واقعنا اليوم هكذا .. حتى ينصرنا الله على اليهود ؟ !

وإن لله شريعة ومنهاجا للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة .. ومعلوم أن نصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه، ومحاولة تحكيمها فى الحياة كلها بلا استثناء .. فهذا نصر الله فى واقع الحياة .. فهل واقعنا اليوم هكذا حتى ينصرنا الله على اليهود ؟ !(١).

ونقف لحظة أمام قوله تعالى قبل الآيات التى معنا :

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾(٢)

وقوله جل شأنه :

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾

وفي كلتا الحالتين : حالة القتل، وحالة النصرة ، يشترط أن يكون هذا لله وفى سبيل الله... وهى لفتة بدهية.. ولكن كثيرا من الغبش يغطى عليها عندما تنحرف العقيدة فى بعض الأجيال. وعندما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم .

إنه لاجهاد ، ولا شهادة ولاجنة ، إلا حين يكون الجهاد فى سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده ، والنصر له وحده ــ كما أسلفنا ــ فى ذات النفس وفى منهج الحياة ..

لاجهاد ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هى العليا.. وأن تهيمن شريعته ومنهاجه فى ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفى أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.. فهل واقعنا اليوم هكذا .. حتى ينصرنا الله على اليهود ؟ !

---

(١) المرجع السابق : ٦ : ٣٢٨٨ وما بعدها بتصرف . (٢) محمد : ٤ ــ ٦ .

وإن تعجب فعجب أن ترى شعارات مرفوعة ، وأسماء غريبة عن الإسلام، حتى فى حروفها.. تعلن عن نفسها فى ميدان القتال مع اليهود ويظن كثيرون من المسلمين السذج الذين ينقصهم الوعى الإسلامى بأنهم جادون فى تحرير الأرض المغتصبة .. بل رأينا شعارات ترتفع بإقامة الدولة العلمانية ! وكل هذا زيف وضلال ! فهل مع هذا ينصرنا الله على اليهود ؟!

إنه ليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد فى سبيله من يجاهد ويستشهد فى سبيله من يستشهد، فيحق له وعد الله بالجنة ، إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف. من كل مايروج فى الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات !

ويحسن أن يدرك أتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ هذه اللفتة البدهية، وأن يخلصوها فى نفوسهم من الشوائب التى تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على حقيقة العقيدة.. حتى ينصرنا الله على اليهود !

لاجهاد إلا لتكون كلمة الله هى العليا.. العليا فى النفس والضمير.. والعليا فى الخلق والسلوك.. والعليا فى الأوضاع والنظم.. والعليا فى العلاقات والارتباطات فى كل أنحاء الحياة..

وما عدا هذا فليس لله . ولكن للشيطان!

وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة، وليس هناك استشهاد !

وفيما عدا هذا ليس هناك جنة، ولا نصر من عند الله، ولاتثبيت للأقدام .. وإنما هو الغبش وسوء التصرف و الانحراف !

وإذا عز على غير أتباع الرسول الحبيب المحبوب ﷺ أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصرف والانحراف فلا أقل من أن يخلص المؤمنون المجاهدون أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذى لا يتفق مع البدهية الأولى فى شرط الله .

﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾

هذا شرط الله على الذين آمنوا .

فأما شرطه لهم فهم النصر وتثبيت الأقدام ...

وعد الله لا يخلفه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (١)

فقد ضمن للمؤمنين إذن أنه هو تعالى يدافع عنهم .. ومن يدافع الله عنه فهو ممنوع حتما من عدوه .. ولكن الله عز وجل لم يرد أن يكون حملة دعوته من « التنابلة » الكسالى، الذين يجلسون فى استرخاء (٢) ، ثم يتنزل عليهم نصره سهلا هينا بلا عناء ، لمجرد أنهم يقيمون الصلاة ويؤدون ما أوجب الله عليهم ويرتلون القرآن، ويتوجهون إلى الله بالدعاء ، كلما مسهم الأذى ووقع عليهم الاعتداء !

نعم ، إنهم يجب أن يقيموا الصلاة ، ويؤدوا ما أوجب الله عليهم ، ويرتلوا القرآن ، ويتوجهوا إلى الله بالدعاء فى السراء والضراء .. ولكن هذه العبادة وحدها لاتؤهلهم لحمل دعوة الله وحمايتها ، إنما الزاد الذى يتزودونه للمعركة ، والذخيرة التى يدخرونها للموقعة ، والسلاح الذى يطمئنون إليه وهم يواجهون الباطل بمثل سلاحه ، ويزيدون عليه: سلاح التقوى والإيمان والاتصال بالله عز وجل .

لقد شاء الله أن يجعل دفاعه عن الذين آمنوا يتم عن طريقهم هم .. كى يتم نضجهم هم فى أثناء المعركة . فالبنية الإنسانية لا تستيقظ كل الطاقات المذخورة فيها كما تستيقظ وهى تواجه الخطر ، وهى تدفع وتدافع ، وهى تستجمع كل قوتها لتواجه القوة المهاجمة.. عندئذ تتحفز كل خلية بكل ما أودع فيها من استعداد لتؤدى دورها، ولتتساند مع الخلايا الأخرى فى العمليات المشتركة، ولتؤدى أقصى ما تملكه ، وتبذل آخر ما تنطوى عليه ، وتصل إلى أكمل ما هو مقدور لها وماهى مهيأة له من الكمال ...

ولنا عود على بدء نتحدث فيه بالتفصيل ـ إن شاء الله ـ عن معالم النصر على اليهود.. فنحن هنا فى مجال الحديث عن الدروس المستفادة من معارك خيبر .. وإن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سببا فيه ، وهذا صحيح ، ولكن تأخير ذكره فى قول الله تعالى فى الآيات التى معنا :

﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

يوحى بأن المقصود معنى آخر من معانى التثبيت. معنى التثبيت على النصر وتكاليفه . فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والباطل . فللنصر تكاليفه فى

---

(١) الحج : ٣٨ .　　(٢) المرجع السابق : ٤ : ٢٤٢٥ ومابعدها بتصرف .

ذات النفس وفى واقع الحياة .. للنصر تكاليفه فى عدم الزهو به والبطر ، وفى عدم التراخى بعده والتهاون .. وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء ، ولكن القليل هو الذى يثبت على النصر والنعماء. وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر .

موقف شهيد :

ويطيب لنا أن نذكر موقف شهيد من الشهداء ليكون ذكرى لمن يطلبون الشهادة، ومعلما على طريق الكفاح .. يروى الحاكم وغيره بسند صحيح عن شداد بن الهاد أن رجلا من الأعراب آمن برسول الله ﷺ ، وقال: أهاجر معك ، فأوصى النبى ﷺ أصحابه به ، فلما كانت غزوة خيبر أو حنين ، غنم رسول الله ﷺ شيئا فقسم ، وقسم له فأعطى أصحابه ماقسم له وكان يرعى ظهرهم فلما جاد دفعوه إليه فقال : ماهذا ؟ قالوا : قسمه لك رسول الله ﷺ فأخذه فجاء فقال : يا محمد ، ماعلى هذا اتبعتك ، ولكنى اتبعتك على أن أرقى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال :

« **إن تصدق الله يصدقك** »

«**فلبثوا قليلا ، ثم دحضوا فى قتال العدو، فأتى به يحمل ، وقد أصابه سهم ، حيث أشار ، فقال النبى ﷺ :**

« **أهو هو ؟** »

قالوا : نعم . قال :

« **صدق الله فصدقه** »

« **فكفَّنه النبى ﷺ، ثم قدمه فصلّى عليه ، وكان مما ظهر من صلاته عليه :**

« **اللهم ! هذا عبدك خرج مهاجرا فى سبيلك ، فقُتل شهيدا، فأنا عليه شهيد** » (١)

صورة مقابلة :

وفى الصورة المقابلة نقرأ :

---

(١) الحاكم : ٣ : ٥٩٥ ـ ٥٩٦ ، والنسائى : ٤ : ٦٠ والطحاوى فى شرح معاني الآثار : ١ : ٢٩١ والبيهقى : ٤ : ١٥ ـ ١٦ وإسناده صحيح .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام ، فالدعاء بالتعس قضاء من الله سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان .. وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾

وهو تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل الله من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه .. وهذا هو الذى يدفع باليهود ومن على شاكلتهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة، وهى حالة كثيرمن النفوس الفاسدة التى تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته . وهى نفوس خبيثة حاقدة يلتقى بها الإنسان كثيرا فى كل زمان وفى كل مكان وفي كل جيل وفى كل قبيل ، وإن رفعت رايات أخرى ويحس الإنسان منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به، حتى إنها لتفزع من مجرد ذكر اسم الإسلام ، كما لوكانت أصابتها العقارب ! وتتجنب أن يجىء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث !

ولعلنا نشاهد فى هذه الأيام حالة من هذا الطراز، فى الأرض المغتصبة، لا تخفى على الملاحظة !

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل الله أن أحبط أعمالهم .. وإحباط الأعمال تعبير تصويرى على طريقة القرآن الكريم فى التعبير بالتصوير. فالحبط ـ كما يقول ابن فارس (١) يدل على بطلان أو ألم. يقال : أحبط الله عمل الكافر : أى أبطله. وأما الألم فالحبط : أن تأكل الدابة حتى تنتفخ لذلك بطنها .. وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت .. ثم انتهت إلى الضياع !

حقا ، إنها صورة وحركة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل الله، من اليهود ومن على شاكلتهم ، ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى حتى تنتفخ !

ثم يلوى أعناقهم إلى مصارع الغابرين قبلهم فى شدة وعنف :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ اللَّهُ

---

(١) معجم مقاييس اللغة : (حبط) .

﴿ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾

وهى لفتة عنيفة مروعة ، فيها ضجة وفرقعة ، وفيها مشاهد ومشاهد للذين من قبلهم دمر الله عليهم . فإذا أنقاض متراكمة ، وإذا هم تحت هذه الأنقاض المتراكمة !

وذلك المشهد الذى يرسمه التعبير مقصود بصورته هذه وحركته والتعبير يحمل فى إيقاعه وجرسه صورة هذا المشهد وفرقعته في انقضاضه وتحطمه !

وعلى مشهد التدمير والتحطيم ــ كما أسلفنا فى معارك خيبر ــ يلوح للكافرين، ولكل من يتصف بهذه الصفة ، بأن هذه النتيجة فى انتظارهم وهذه الوقعة المدمرة التى تدمر عليهم كل شيء وتدفنهم بين الأنقاض فى انتظارهم :

﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾

وتفسير هذا الأمر الهائل المروع الذى يدمر على هؤلاء وأمثالهم وينصر المؤمنين فى كل زمان ومكان ، وجيل وقبيل ، هو القاعدة الأصيلة الدائمة :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾

ومن كان الله وليه وناصره فحسبه ، وفيه الكفاية والغناء ، وكل ماقد يصيبه إنما هو ابتلاء وراءه الخير ، لاتخليا من الله عن ولايته له، ولا تخلفا لوعد الله بنصر من يتولاهم من عباده .

ومن لم يكن الله مولاه فلا مولى له، ولواتخذ الشياطين فى الدنيا كلها أولياء ــ كما هو واقع اليهود ــ فإن النهاية معروفة ومقررة .. هى القضاء على اليهود ومن على شاكلتهم عسكريا ــ كما عرفنا ــ ولو تجمعت كل أسباب الحماية وكل أسباب القوة التى يعرفها الناس ! .

أهم المراجع

١ ــ الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، لابن عبد البر ، مجلس دائرة المعارف النظامية ، ط أولى ، الهند ١٣١٨ هـ .

٢ ــ أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لعز الدين أبى الحسن على الجزرى، ابن الأثير ، ط جمعية المعارف، مصر ١٢٨٥ هـ .

٣ ــ الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر ، دار الكتب العلمية ، بيروت.

٤ ــ الإنسان بين المادية والإسلام ، للأستاذ محمد قطب ، دار الشروق، ط سابقة ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م .

٥ ــ البداية والنهاية ، لابن كثير، المعارف ، بيروت ، ط ثالثة ١٩٧٨م .

٦ ــ تاريخ العرب قبل الإسلام ، للدكتور جواد على ، ط المجمع العلمى العراقى .

٧ ــ تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، للدكتور إسرائيل ولفنسون ط الاعتماد.

٨ ــ التطور والثبات فى حياة البشرية ، للأستاذ محمد قطب ، دار الشروق ، ط خامسة ١٤٠٣ هـ ــ ١٩٨٣م .

٩ ــ تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ط دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه.

١٠ ــ تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل القرآن) عيسى البابى الحلبى ط ثالثة ١٣٨٨ هـ ــ ١٩٦٨م .

١١ ــ تفسير الطبرى ، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، ط دار المعارف القاهرة.

١٢ ــ تفسير القاسمى (محاسن التأويل) عيسى البابى الحلبى، ط أولى ١٣٧٦ هـ ــ ١٩٥٧م.

١٣ ــ تفسير الكشاف، للزمخشرى، دار المعرفة بيروت .

١٤ ــ تفسير المنار (تفسير القرآن الكريم) للشيخ محمد عبده، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت .

١٥ ـ تهذيب التهذيب ، لابن حجر ، مجلس دائرة المعارف النظامية الهند ١٣٢٥هـ .

١٦ ـ الرسول القائد، للواء الركن محمود شيت خطاب، دار الفكر بيروت ، ط خامسة.

١٧ ـ ديوان حسان بن ثابت الأنصارى، دار صادر، بيروت.

١٨ ـ الروض الأنف، للسهيلى، ومعه السيرة النبوية، لابن هشام، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

١٩ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد، لابن القيم، تحقيق الأرنؤوط مؤسسة الرسالة، المنار الإسلامية،ط أولى ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م .

٢٠ ـ سنن ابن ماجه ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط دار الفكر العربى.

٢١ ـ سنن أبى داود، ط مصر التجارية، الأولى، وط المدينة المنورة.

٢٢ ـ سنن البيهقى (السنن الكبرى) ط دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد ١٢٥٣ هـ.

٢٣ ـ سنن الترمذى (الجامع الصحيح) ط بولاق ١٢٩٢هـ، والهند، والحلبى ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٢٤ ـ سنن الدارمى، دار إحياء السنة النبوية .

٢٥ ـ سنن النسائى ، بشرح جلال الدين السيوطى، وحاشية السندى ط دار الكتاب العربى ، بيروت .

٢٦ ـ السيرة الحلبية، للحلبى بيروت، المكتبة الإسلامية، دار إحياء التراث العربى .

٢٧ ـ السيرة النبوية، لابن كثير ، تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد دار المعارف، بيروت .

٢٨ ـ السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد،ط حجازى، وط الحلبى، القاهرة.

٢٩ ـ صحيح البخارى، مع فتح البارى، ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، الرياض الحديثة.

٣٠ ـ صحيح مسلم، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، دار إحياء التراث العربى .

٣١ ـ صحيح مسلم ، بشرح النووى، ط المصرية .

٣٢ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٣ ـ عون المعبود : شرح سنن أبى داود، لابن قيم الجوزية، تحقيق الشيخ عبد الرحمن عثمان، السلفية، ط ثانية ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م .

٣٤ ـ عيون الأثر فى فنون المغازى والسير، لابن سيد الناس، ومعه اقتباس الاقتباس لحل مشكلة سيرة ابن سيد الناس، لابن عبد الهادى، دار المعرفة، بيروت.

٣٥ ـ غزوة خيبر، للأستاذ محمد أحمد باشميل، ط أولى، التجارية، بيروت.

٣٦ ـ فتح البارى : شرح صحيح البخارى لابن حجر، الرياض الحديثة، الرياض.

٣٧ ـ الفتح الربانى لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيبانى، ومعه بلوغ الأمانى من أسرار الفتح الربانى ، للشيخ عبد الرحمن البنا، الشهير بالساعاتى، وبحاشيته القول المسدد فى الذب عن مسند أحمد لابن حجر، ط أولى، الإخوان المسلمين، القاهرة.

٣٨ ـ فى ظلال القرآن ، للأستاذ سيد قطب، ط دار الشروق ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م .

٣٩ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمى، بتحرير العراقى وابن حجر، دار الكتاب العربى بيروت ، ط ثالثة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢م.

٤٠ ـ محمد رسول الله ﷺ ، للأستاذ محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق ط أولى ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م

٤١ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم، وبذيله التلخيص، للذهبى ، ط أولى ، حيدر آباد .

٤٢ ـ مسند أحمد، وبهامشه كتاب منتخب كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال، للمتقى الهندى ، ط الميمنية ، مصر .

٤٣ ـ مسند أحمد ، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، دار المعارف، مصر ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م.

٤٤ ـ المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، دار إحياء التراث العربى.

٤٥ ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، دار الكتب العلمية، إيران .

٤٦ ـ المواهب اللدنية، للقسطلانى ، مع شرح الزرقانى، وبهامشه زاد المعاد، لابن القيم، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

٤٧ ـ الموطأ ، لمالك بن أنس، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م.

٤٨ ـ نصب الراية للزيلعى، المجلس العلمى، ط ثانية ١٣٩٣ هـ المكتب الإسلامى.

ـ وهناك كتب ومطبوعات أخرى رجعنا إليها ، وأشرنا إلى موضع النقل منها فى حينه.

الفهـــــــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
الفصل الأول : اليهود فى خيبر	٧
تمهيد	٩
متى جاء اليهود إلى خيبر؟	٩
اليهود عنصر دخيل فى الجزيرة	١٠
قوة يهود خيبر	١١
وكر للتآمر على المسلمين	١٣
وعد الله المسلمين بفتح خيبر	١٤
علاقة المجتمع المسلم بسائر المجتمعات	١٧
مقدمات المعاهدة	١٨
بناء إنسانى ينخر فيه سوس الفناء	١٩
طريق الدعوة	١٩
اليهود والمنافقون	٢٠
الرسول ﷺ يمد يد المسالمة	٢١
أثر هذه السياسة	٢٢
بشرى من الله	٢٢
عدم قبول تجنيد المخلَّفين	٢٤
حصون خيبر	٣١
المنافقون طابور خامس	٣١
استعداد اليهود للمواجهة	٣٢
الفصل الثانى : الطريق إلى خيبر	٣٥
متى كانت غزوة خيبر؟	٣٧
والى المدينة	٣٨
مدى قوة المسلمين	٣٨
إدلاء الجيش	٣٩
طريق الجيش إلى خيبر	٣٩

الموضوع	الصفحة
النبى ﷺ وخط الرجعة	٤٠
موقف حرج	٤١
سر صمود المسلمين	٤٢
الانتصار بالرعب	٤٢
بشائر النصر	٤٣
اختلاف قادة اليهود فى وضع الخطط	٤٥
« الله أكبر! خربت خيبر »	٤٦
دعاء النبى ﷺ	٤٩
تربية الأمة	٥١
إعداد ودعاء وثبات	٥٢
الوحدة الإيمانية	٥٢
الكفاح الصبور	٥٦
الربط بين الأسباب والمسببات تحكمه مشيئة الله	٥٧
مقام العبودية	٥٨
انقلاب الميزان	٥٩
مفاجأة اليهود	٦٠
مصير القرى الفاجرة	٦٠
دور «فرويد اليهودى»	٦١
من مخططات يهود	٦٣
حقائق أساسية	٦٥
حرب من الله ورسوله	٦٧
الفصل الثالث : الهزيمة العسكرية	٧٥
علىّ يحمل الراية	٧٧
يا منصور أمت	٧٩
حصون خيبر	٧٩
الحراسة	٧٩
أول عمل حربى	٧٩
معسكر المسلمين الأول	٨٠
أول شهيد	٨٠
قتل مرحب اليهودى	٨٠

الموضوع	الصفحة
شدة الموقف	٨٢
سقوط حصن ناعم	٨٣
اليهودى الذى طلب الأمان فأعطيه	٨٣
حصن الصعب	٨٤
الحباب بن المنذر يحمل الراية	٨٤
المدافعون عن الحصن	٨٥
المبارزة	٨٥
التراشق بالسهام	٨٥
هجوم مضاد	٨٦
معركة ضارية	٨٦
مصرع سلاّم بن مشكم	٨٨
انهزام اليهود	٨٩
بداية النهاية	٨٩
تطهير منطقة النطاة	٩٠
قلعة الزبير	٩٠
صعوبة الاقتحام	٩٠
فتح الحصن	٩٠
حصون الشق	٩١
ضرب الحصار على القلعة	٩١
فتح القلعة	٩١
حصن النزار	٩٢
الهجوم على الحصن	٩٢
نصب المنجنيق	٩٣
زحف الجيش الإسلامى	٩٤
الاستسلام النهائى	٩٤
تسامح الرسول ﷺ	٩٥
معالم اتفاقية التسليم	٩٥
هكذا فتحت خيبر	٩٦
نهاية الطاغوت اليهودى	١٠٠
ما أشبه الليلة بالبارحة	١٠٠

الموضوع	الصفحة
الرسول القائد	١٠١
النبى ﷺ يعيد التوراة لليهود	١٠٣
اعتراف ولفنسون	١٠٤
النبى ﷺ يتزوج صفية	١٠٥
اليهود يقدمون شاة مسمومة للنبى ﷺ	١٠٨
قدوم مهاجرى الحبشة	١١٠
استسلام يهود فدك	١١٠
فتح وادى القرى	١١١
يهود يتماء يدفعون الجزية	١١٢
قصة الرهان	١١٣
حسان يهجو يهود خيبر	١١٥
المسلمون واليهود وجها لوجه	١١٥
« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة »	١١٨
« إن تنصروا اللّه ينصركم »	١١٩
وعد الله لا يخلفه	١٢٢
موقف شهيد	١٢٣
صورة مقابلة	١٢٣
أهم المراجع	١٢٧
الفهرس	١٣١